الزهرة القرمزية

الجزء الأول



البارونه اوركزي

ترجمة: مجيد ياسين

الزهرة القرمزية

تأليف : البارونة اوركزي
ترجمة : مجيد ياسين



الفصل الاول

(باريس: أيلول ١٧٩٢)

حشد ثائر هائج صاخب، مخلوقات لاتحمل من صفات الانسان سوى الاسم، فهي لاتبدو للناظر والسمع سوى مخلوقات متوحشة تحركها النوازع الشريرة وشهوة الانتقام والحقد. الوقت: قبل الغروب بقليل والمكان: المتراس الغربي، في نفس الموضع الذي أقام فيه طاغية متعجرف، بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ، نصباً ضخماً لتخليد مجد الأمة وغروره الشخصي.

لم تتوقف المقصلة عن عملها الشنيع طوال اليوم: فكل ما تباهت به فرنسا من اسماء عريقة ودماء زرق في القرون الماضية دفعته ثمناً لرغبتها في الحرية والمساواة. ولم تتوقف المذبحة في هذه الساعة المتأخرة من النهار الّا لأن مشاهد أخرى أشد تسلية تنتظر الجمهور قبل

غلق المتاريس وحلول الظلام.

ولـذا غادر الحشـد ميـدان لاغـريف متوجهاً الى المتاريس الأخرى ليستمتع بمثل هذا المشهد المهم.

كان مشهـداً يومياً. ذلـك لأن اولئـك الاستقطراطيين أناس شديدو الحمـاقـة! إنهم إعداء الشعب بالطبع.. كلهم.. كل الرجال والنساء والأطفـال أحفـاد الرجال العظام الذين صنعوا مجد فرنسا منذ الحروب الصليبية: نبلائها القدامى. لقد اضطهد أسلافهم الشعب وداسوا عليه بكعـوب احـذيتهم القـرمزية ذات الزينات. والان أصبح أبناء الشعب حكـام فرنسـا وبـدأوا يسحقـون رؤوس سادتهم القـدامى ـ لا بكعـوب أحذيتهم لأنهم حفاة الاقدام ـ بل بسكين المقصلة.

وراحت آلـة التعـذيب الـرهيبـة تلك تلتهم ضحـايـاها على امتداد الساعات والأيام: شيوخ، صبايا، أطفال صغار، حتى جاء اليوم الذي طالبت فيه برأس ملك ورأس ملكة شابة جميلة.

هكـذا كان الأمـر: أليس أبنـاء الشعب هم حكام فرنسا الآن؟ فكل أرستقـراطي خائن كمـا كانه أسلافه من قبل: فمنذ مئتي سنة والشعب يعرق ويكدح ويعاني الجوع ليوفر الترف و البذخ للقصور. وهاهم أبناء الـذين بنـوا القصـور البـاذخـة. يختبئـون طلباً للنجاة: يلوذون بالفرار للافلات من انتقام الشعب الذي لا مفر منه.

وحـاولـوا الاختبـاء فعـلاً، وحاولوا الفرار: وهذا هو مصدر التسلية، ففي عصـر كل يوم، وقبـل إغـلاق البوابات وخروج عربات الحمل في طوابيـر من المتـاريس المختلفـة يحاول بعض الأرستقراطيين الحمقى الافـلات من قبضـة (لجنـة السـلامة العامة). ولقد حاولوا، بمختلف انـواع التنكـر وتحت مختلف الذرائع، التسلل من الحواجز التي كانت تحت حراسـة شديـدة من قبـل المواطنين جنود الجمهورية: رجال في

ملابس النسـاء، نسـاء في زي الـرجـال، أطفـال متنكـرون بأسمال. الشحـاذين، . وكـانـوا من اوسـاط ارستقراطية مختلفة ـ بينهم الكونت والمـاركيـز وحتى الـدوق ـ ممن أرادوا الهـرب من فرنسـا والوصول الى انكلتـرا أو أي بلد ملعـون آخـر ليحـاولوا من هناك إثارة مشاعر الأجانب ضد الثـورة المجيـدة، أو إعـداد جيش لتحـريـر سجنـاء (التـامبـل)* المساكين الذين كانوا الى الماضي القريب: ملك وملكة فرنسا وأمراءها.

الا أن أولئـك النبـلاء كانـوا دائمـاً تقـريباً ينتهون الى الاعتقال عند المتـاريس. وكـان العـريف بيبـو خاصـة في (الحاجز الغربي) يمتلك حاسـة شم عجيبـة يكتشف بهـا الارستقـراطي حتى لو كان في غايـة التنكـر. عنـدئـذٍ تبـدأ المتعة. فيروح بيبو يلعب مع ضحيته لعبة القط والفار طيلة ربع ساعة على الأقل أحياناً. فيتظاهر بأنه انخدع بالتنكر، بالشعـر المستعـار وغيـره من لوازم المكيـاج المسـرحي التي يحـاول الكونت أه الماركيز السابق، إخفاء هويته وراءها.

آه، إن بيبو يتمتع بحس دعابة فريد، الأمر الذي يجعل التوافد على الحـاجـز الغـربي يستحق العنـاء. هناك يتمتعون برؤية بيبو وهو يمسك بالارستقراطي متلبساً لمحاولة الهروب من انتقام الشعب.

كان [بيبـو] يتـرك الضحيـة أحيـانـاً تغـادر البوابة فعلاً، تاركاً الرجل المسكين يعتقد لمدة دقيقتين على الأقل بأنه قد هرب من باريس حقاً وقـد يكتب له بلوغ السـاحل الانكليزي سالماً. لكن بيبو ماكان يسمح لسيء الحظ البائس بالابتعاد أكثر من عشرة أمتار تقريباً حتى يرسل في أثره أثنين من رجاله ليعودا به مجرداً من تنكره.

آه، يالها من متعة! فغالباً مايتبين أن الهارب امرأة، ماركيزة متعجرفة مثـلاً، يغـدو شكلهـا مضحكـاً للغـايـة حين تجد نفسها في قبضة بيبو

وتـدرك أن محـاكمـة سريعة تنتظرها في الغد لتنتقل بعدها الى أحضان «مدام مقصلة».

فلا عجب أذن أن يكـون الجمهـور، الملتف حول بوابة [بيبو]، في عصر ذلك اليوم الرائق من شهر أيلول، في لهفة وشوق. إن شهوة الدم تزداد كلمـا غذيتهـا فهي لاتعـرف الارتواء: لقد رأى الجمهور مئة رأس نبيل تطيح بها المقصلة، اليوم ويريد أن يؤمن مئة رأس أخرى لمقصلة الغد.

كان [بيبو] جالساً على برميل فارغ مقلوب بجوار بوابة الحاجز. وثمة مفـرزة من المـواطنين الجنود تحت إمرته. كان نشاط المقصلة محموماً في الآونـة الأخيـرة. فقد استولى الرعب على أولئك النبلاء المنكودين وراحوا يحاولون الافلات من باريس بكل السبل: ذلك أن كل الرجال والنساء والأطفال، الذين خدم أجدادهم آل بوربون الخونة، حتى في غابر الأيام، هم خونة أيضاً ويجب أن يكونوا طعاماً للمقصلة. كان بيبو يجـد لذة كل يوم في كشف هويـة بعض الملكيين الهـاربين وارسـالهـم للمحـاكمـة أمـام لجنـة السـلامـة العام التي يرأسها الوطني المخلص المواطن [فوكييه تانڤيي].

لقـد أوصى كلا من روبسبيـر ودانتـون بـ[بيبـو] لشـدة حمـاسـه. ويتباهى هذا بحقيقة أنه استطاع بمبادرته الشخصية أن يرسل خمسين ارستقراطياً على الأقل الى المقصلةة.

لكن اليـوم هذا يختلف عن سابقـاتـه. فقـد تلقى جميـع العـرفـاء المسؤولين عن مختلف الحـواجـز أوامر خاصة. لقد نجح عدد كبير من الارستقـراطيين في الهـروب من فرنسـا والوصول الى انكلترا سالمين، في الآونـة الأخيـرة. وانطلقت الشائعات تتحدث عن حوادث الهروب هذه التي صارت تتكـرر بطـريقـة جريئـة غريبـة. وبدأ الناس بفقدون صبـرهم. وأرسـل العريف غروسبيير الى المقصلة بعدما تسللت عائلة

ارستقراطية من البوابة الشمالية رغم أنفه.

وبات من المؤكد أن الذين نظموا عمليات الهروب هذه هم جماعة من الانكليز لا حدود لجرأتهم، يقضون أوقات فراغهم في انقاذ الضحايا المساكين قبل وصولهم الى أحضان مدام مقصلة. ولم يكن لهؤلاء الانكليز من سبب سوى الرغبة الخالصة بالتدخل في مالايعنيهم. وسرعان ما غدت هذه الشائعات على كل لسان: فما من شك بأن هذا النفر من الانكليز الفضوليين موجود فعلاً. بل أكثر من هذا أن الذي يقودهم، على مايبدو، رجل بلغت جرأته وشجاعته حداً يفوق التصور. وكان الناس يتناقلون الحكايات: كيف أنه والارستقراطيين الذين ينقذهم يختفون فجأة حال ما يصلون الى الحواجز ويهربون من البوابات بفضل قوى خارقة.

لم يقدر لأحد أن يرى هؤلاء الانكليز الغامضين. أما زعيمهم فما أن يذكر اسمه حتى تسري في الابدان رهبة سحرية. كان المؤطن فوكييه تانقيي يتلفى قصاصة ورق من مصدر غامض أو يجدها في جيب معطفه. وأحياناً يتسلمها بيده من يد مجهولة بين الجمهور الحاشد، وهو في طريقه الى اجتماع لجنة السلامة العامة وتحمل القصاصة خبراً صغيراً عما سيفعله الانكليز الفضوليون وتكون دائماً موقعة بختم صغير أحمر ـ بهيئة وردة نجمية الشكل صغيرة نسميها في انكلترا «الزهرة القرمزية». وبعد بضع ساعات من وصول القصاصة الوقحة يسمع الموطنون أعضاء لجنة السلامة العامة بهروب عدد كبير من أنصار الملكية والأرستقراطيين ونجاحهم في الوصول الى الساحل ومنه الى انكلترا سالمين.

ضوعف عدد الحراس على البوابات وهدد العرفاء المسؤولون بالموت في الوقت الذي عرضت جوائز مغرية للقبض على هؤلاء الانكليز الجريئين الوقحين. ووضعت جائزة قيمتها خمسة آلاف فرنك

لمن يضع يده على الرجل الغامض الماكر الملقب بالزهرة القرمزية.

كان الجميع يشعرون بأن بيبو هو المؤهل لنيل الجائزة. وعمل بيبو من جانبه على تقوية هذا الاعتقاد في أذهان الكل. ولذا صار الناس يأتون يوماً بعد يوم لمراقبة البوابة الغربية حتى يكونوا حاضرين ساعة يمسك بارستقراطي هارب قد يكون بصحبة الرجل الانكليزي المجهول.

قال بيبو محدثاً مساعده الأمين، نائب العريف:

ـ باه! المواطن غروسبيير كان أحمق! ليتني أنا كنت مكانه في البوابة الشمالية، الاسبوع الماضي.

بصق المواطن بيبو على الأرض للتعبير عن احتقاره لغباء رفيقه، فسأله نائب العريف:

ـ كيف حدثت، أيها المواطن؟

قال بيبو بعظمة:

ـ كان غروسبيير يراقب البوابة بانتباه حين التف حوله الجمهور متلهفاً لسماع الأخبار: «كلنا سمعنا عن هذا الانكليزي المتطفل، هذا اللعين الزهرة القرمزية. لن يمر من بوابتي، تباً له! إلا اذا كان الشيطان نفسه. لكن غروسبيير أحمق. كانت العربات تغادر البوابة، بينها واحدة محملة بالبراميل يقودها رجل عجوز يجلس الى جانبه صبي.

كان غروسبيير سكراناً بعض الشيء، لكنه كان يتصور نفسه شديد الذكاء. فحص البراميل ـ أغلبها على الأقل ـ فوجدها فارغة فسمح للعربة بالعبور.

فصدرت غمغمة غضب واحتقار عن الجمع البائس الرث الملتف حول المواطن بيبو. وتابع العريف كلامه:

ـ بعد نصف ساعة يأتي ضابط حرس ومن ورائه كوكبة من جنود الخيالة، فيسأل غروسبيير لاهث: «هل مرت عربة حمولة من هنا؟»

فيجيب غروسبيير: «نعم قبل نصف ساعة تقريباً». فيصرخ الضابط بغضب شديد: «وتركتهم يهربون! ستذهب الى المقصلة جزاء ذلك، أيها المواطن العريف! العربة تلك تحمل النبيل السابق الدوق دوشايي وجميع أفراد عائلته!». فيرعد غروسبيير مذعوراً.

- «ماذا!». - «أجل! والسائق ليس سوى الانكليزي الملعون - الزهرة القرمزية».

استقبلت هذه الحكاية بعاصفة من اللعنات. لقد دفع المواطن غروسبيير رأسه تحت سكين المقصلة ثمناً لحماقته، ولكن ياله من أحمق! ياله من أحمق!

مضى بيبو يضحك لحكايته بعض الوقت قبل أن يتمالك نفسه ويستأنف كلامه: ويصيح الضابط: «وراءهم يارجالي. تذكروا الجائزة. وراءهم... لا أظنهم ابتعدوا كثيراً!»

بهذه الكلمات ينطلق من البوابة تتبعه كوكبة جنوده. راح الموجودون يهتفون بانفعال:

- لكن بعد فوات الأوان!

- لم يمسكوا بهم!

- اللعنة على ذلك الـ«غروسبيير» الأحمق.

- نال مايستحقه!

- لو كان فحص تلك البراميل جيداً!

بيد أن هذه الكلمات الغاضبة ما كانت الا لتزيد المواطن بيبو سروراً، فضحك حتى تعبت خاصرتاه وسالت الدموع على خديه. قال أخيراً:

- لا، لا! أولئك الارستقراطيون لم يكونوا في العربة. وسائق العربة لم يكن الزهرة القرمزية!

- ماذا؟

- لا! ضابط الحرس هو الانكليزي اللعين متنكراً وكل واحد من جنوده

هو من الارستقراطيين الهاربين!

خيم الصمت على الجمهور: حكاية فيها شيء خارق للطبيعة حقاً. صحيح أن الجمهورية ألغت الله (أو ألغت الدين)، لكنها لم تنجح تماماً في قتل الشعور بوجود القوى الخارقة للطبيعة في قلوب الناس.

كانت الشمس تتوارى ببطء وراء الأفق الغربي. وبدأ بيبو يتهيأ لاغلاق البوابات. قال:

- لتخرج العربات (أو هيا ياعربات).

اصطفت حوالي اثنتي عشرة عربة حمل مغطاة في طابور استعداداً لمغادرة المدينة لجلب الأغذية والمحاصيل الزراعية من الريف في صباح اليوم التالي. كان بيبو يعرف أغلب أصحاب العربات لأنهم يمرون من بوابته مرتين كل يوم بدخولهم المدينة وخروجهم منها. وكان يتبادل الاحاديث مع واحد أو أثنين من سائقي العربات في كل مرة - وأغلبهم من النسوة. ويجد مشقة كبيرة في تفتيش العربات، قائلاً:

- من يدري! ثم أنا لا أريد أن أنتهي نهاية غروسبيير الأحمق.

كانت النسوة اللواتي يقدن العربات يمكثن طوال النهار بجوار المقصلة في ميدان لاغريف، يقضين الوقت بالحياكة ونشر الشائعات، بينما يراقبن عربات نقل المحكومين التي تأتي في طوابير حاملة ضحايا «عهد الأرهاب» كل يوم. كن يجدن متعة عظيمة في رؤية الارستقراطيين تستقبلهم مدام مقصلة، ويتنافسن على احتلال الاماكن القريبة من منصة الاعدام.

كان بيبو في خفارة عند البوابة طوال النهار. وكان يعرف غالبية العجائز «الحائكات» - كما كانوا يطلقون عليهن - اللواتي يجلسن هناك يحكن بينما تهوي الرؤوس واحداً تلو الآخر تحت سكين المقصلة فتنثر عليهن دماء أولئك الارستقراطيين الملاعين.

قال بيبو يخاطب واحدة من هؤلاء العجائز المخيفات :

ـ ها ياأم! ماعندك هناك؟

لقد رآها اليوم قبل هذه الساعة وبجانبها غزلها وسوطها وهاهي الآن قد شدت الى مقبض السوط صفاً من خصلات الشعر مختلفة الألوان : من الذهبي الى الفضي ومن الرمادي الى الأسود. وراحت تمسد عليها بأصابعها العظيمة وتضحك على بيبو. قالت وهي تطلق ضحكة خشنة.

ـ صادقت عشيق مدام مقصلة. هو الذي قص لي هذه من الرؤوس التي تدحرجت. ووعدني بالمزيد غداً، لكني لا أدري إن كنت سأكون في مكاني المعتاد.

لم يملك بيبو، وهو الجندي الصلب، الا ان يرتجف لرؤية هذا النمط المخبول الشرير من النساء وهذه التذكارات الشنيعة على مقبض سوطها. سألها :

ـ آه! كيف ذلك ياأم؟

قالت وهي تومىء بإبهامها القبيح الى داخل العربة :

ـ حفيدي مصاب بالجدري. البعض يقول إنه طاعون. لن يسمحوا لي بدخول باريس غداً.

إرتد بيبو الى الخلف بسرعة لدى سماعه الحديث عن الجدري. وحين ذكرت العجوز الطاعون ابتعد عنها بأسرع مايستطيع وهو يغمغم :

ـ عليك اللعنة!

فيما ابتعد الجمهور عن العربة وتركوها واقفة وحدها وسط الميدان. فضحكت العجوز وقالت :

ـ عليك اللعنة أنت أيها المواطن لأنك جبان. باه! أي رجل هذا الذي يخاف من مرض!

ـ تباً له! الطاعون!

خيّم الصمت والرهبة على الجميع وامتلئوا رعباً أمام هذا المرض الكريه، الشيء الوحيد الذي يملك القدرة على زرع الخوف والاشمئزاز في نفوس هذه المخلوقات البربرية المتوحشة. صرخ فيها بيبو بقسوة:

- ولي أنت وصغيرك المضروب بالطاعون!

وبضحكة مجلجلة ونكتة خشنة أخرى ضربت حصانها الهزيل بالسوط وقادت عربتها الى خارج البوابة.

هذه الحادثة أفسدت الأمسية. فقد ارتعب الناس من هاتين اللعينتين المخيفتين، الوباءين اللذين لاعلاج لهما واللذين ينذران، بميتة مخيفة. وظلو واقفين قرب البوابة يغلب عليهم الصمت والاكتئاب ويرمقون بعضهم بعضاً بارتياب، متجنبين الواحد الآخر بفعل الغريزة مخافة أن يكون الطاعون متفشياً بينهم. وسرعان ما ظهر ضابط حرس فجأة، كما حصل لغروسبير من قبل، لكن بيبو كان يعرف الضابط ويدري أنه لايمكن أن يكون الانكليزي الماكر متنكراً. صرخ لاهثاً، حتى قبل أن يصل البوابة:

- عربة...

سأله بيبو بخشونة:

- أية عرية؟

- تقودها امرأة عجوز... عربة... عربة مغطاة...

- هناك إثنتا عشرة عربة...

عجوز قالت إن ابنها مصاب بالطاعون؟

- أجل...

- لم تسمح لهم بالمرور؟

قال بيبو، الذي ابيضت وجنتاه الحمراوان فجأة من الخوف:

- تباً لها!

ـ العربة تحمل الكونتيسة السابقة دوتورناي وطفليها. كلهم خونة ومحكومون بالاعدام.

سأل بيبو، بينما سرت في جسده رعدة خوف من السحر:

ـ والسائقة؟

قال الضابط:

ـ يخشى أن تكون ذلك الانكليزي اللعين نفسه ـ الزهرة القرمزية.

(*) التامبل (TEMOLE) سجن في باريس وضعت فيه العائلة المالكة الفرنسية قبل محاكمتها واعدام الملك لويس والملكة ماري أنطوانيت في مَا بعد.



الفصل الثاني

(دوڤر: استراحة الصياد)

كانت سالي منهمكـة بالعمـل في المطبـخ : وكـانت قدور الطبـخ وأوعيـة القلي مرصـوفـة فوق الـوجـاق الكبير، فيما انتصب قدر المرق الكبير في أحد الأركان وراح سيخ الشواء يدور ببطء، معرضاً لوهج النار بانتظـام شريحـة فخمـة من لحم خاصرة البقر. وكانت خادمتا المطبخ الصغيرتان تتحركان بلهفة لتقديم الخدمات وهما تصّبان عرقاً وتلهثان، وقـد شمـرتـا اكمامهما القطنية عن سواعدهما البضة. وكانتا تضحكان بنعومة لنكات تتبادلانها كلما أدارت الانسة سالي ظهرها لحظة. بينما راحت [جيميمـا] العجـوز، البدينة البليدة تدمدم بصوت خفيض وهي تحرك المرق في القدر الكبير على النار بحركة مكر رة.

جاءت أصوات بهيجة جميلة الوقع من قاعدة المشرب المجاورة تنادي :

- ما هذا يا سالي ! - (أين أنت يا سالي).
فهتفت سالي بنفاذ صبر مشفوع بضحكة ودودة:
- ليبارك الله روحي ! ماذا يريدون كلهم الآن، عجباً!
فغمغمت جيميما:
- بيرة طبعاً. لا أظنك.... تنتظرين من [جيمي بتكين] أن يكتفي بقدح واحد، أتظنين؟
قالت مارتا، إحدى الخادمتين الصغيرتين، وهي تتصنع الابتسام:
- المستر هاري، هو ألاخر يبدو عطشاناً بصورة غير اعتيادية.
وغمزت حين التقت عيناها السوداوان اللامعتان بعيني زميلتها فبدأتا جولة اخرى من الضحكات الناعمة القصيرة المكتومة.

نظرت اليهما سالي لحظة ثم مسحت يديها بردفيها الجميلين. كانت يدها تتشوق للنزول بصفعة على خد مارتا المتورد، لكن كرم الطباع غلب على تلك الرغبة فاكتفت بأن مطت شفتيها وهزّت كتفيها استخفافا وعادت الى الاهتمام بالبطاطا التي في المقلاة.
- أين صرت يا سالي ! سالي ! سالي !
وبدأت جوقة من الايدي التي تحمل أقداح بيرة معدنية تدق بنفاد صبر على الطاولات المصنوعة من خشب البلوط ترافقها صيحات تنادي على ابنة صاحب الحانة وجاء صوت أشد الحاحاً ينادي:
- سالي ! هل تنوين قضاء الليل كلّه هناك مع البيرة؟
مضت جيميما ببطء وبلا تعليق تتناول من فوق الرف قارورتين مملوءتين بالبيرة وتبدأ بملىء عدد من الاقداح المعدنية بذلك المشروب الذي اشتهرت به «استراحة الصياد» منذ عهد الملك

تشارلس، فدمدمت سالي:

- أعتقد بأن الوالد يمكن أن يحمل البيرة اليهم. هويعلم كم مشغولون نحن هنا.

فغمغمت جيميما بصوت مكتوم:

- والدك منهمك بمناقشات سياسية مع المستر أيمسيد ولا يفكر بك وبالمبطخ.

مضت سالي الى المرآة الصغيرة المعلقة في أحد أركان المطبخ وراحت تعدل شعرها على عجل وتسوي القلنسوة البيضاء على الخصلات الداكنة في وضع جذاب، ثم حملت الاقداح من مقابضها: ثلاثة بكل يد من يديها السمراوين القويتين حملتها الى قاعة المشرب ضاحكة مغمغمة خجلى.

لم يكن هناك قط ما يدل على ذلك الصخب الذي جعل أربع نساء يتراكضن في المطبخ بلا هوادة.

إن قاعة المشرب في «استراحة الصياد» أصبحت قاعة عرض الآن. أمّا في اواخر القرن الثامن عشر، في عام ١٧٩٢، فلم تكن قد نالت الشهرة والأهمية اللتين صارت تتمتع بهما بعد مائة سنة من ذلك التاريخ. ومع ذلك كان المبنى قديما حتى في تلك الايام. فقد كانت العوارض الخشبية والاعمدة المصنوعة من خشب البلوط مسود بفعل القدم. وكذا الحال مع الكراسي المبطنة ذات المتكأ الطويل والمناضد الطويلة الملمعة الممدودة بينها التي تناثرت عليها أقداح البيرة بشكل حلقات عجيبة. وعلى افريز النافذة العالية ذات الاطار المعدني رصفت أصص لأزهار الجيرانيوم الحمراء وعين القط الزرقاء مخففة بجمال الوانها من كآبة الخلفية الخشبية القاتمة.

أنْ يكـون المستـر جيليبـاند، صاحـْب «استراحة الصيّاد» في دوڤر، رجـلاً ميسـور الحـال فذلك أمر واضح بالطبع حتى من النظرة العابرة. فأقـداح البيـرة المعـدنيـة المصفـوفـة فوق الخزانات القديمة الجميلة والاوعية والاواني النحاسية على الوجاق الكبير تسطع كأنها صنعت من الـذهب والفضـة. والارضيـة المبلطة بالقرميد الاحمر لا تقل تألقا عن زهـور الجيـرانيـوم على إفـريـز النـافـذة ـ هذا يعني ان خدمة عديدون وجيـدون وأن تقـاليـد العمل اليومي لا تهمل ويدل على أنّ هناك نظاماً صارماً يجعل قاعة المشرب على هذا القدر الكبير من الاناقة والنظافة.

وحين دخلت سالي، عابســة وضــاحكــة، كاشفـة عن صف من الأسنـان البيضـاء الرائعة، استقبلتها عاصفة من صيحات الاستحسان وعبارات الترحيب:

«عجباً! ها هي سالي! أين كنت يا سالي! تعيش سالي الحسناء!»

ودمدم جيمي بيتكن وهو يمسح شفتيه اليابستين بظاهر كفّه:

ـ ظننتك صرت صماء في مطبخك ذاك.

فقالت سالي ضاحكة:

ـ طيّب! طيب!

وراحت تضع الاقداح المملوءة على المناضد وتقول:

ـ عجيب! علام هذا الاستعجـــال! هل جدتـــك تمـوت وتـريـد رؤيـة المسكينة قبل أن تخرج روحها! لم أرَ قط مثل هذه العجلة!

فاستقبـل تعليقهـا بعاصفة من الضحك الخالص وفتح أمام الموجودين البـاب لاطـلاق العـديد من النكات والضحك فترة طويلة. لم تتعجل سالي العـودة الى صحـونها وقدورها. فقد جذب اهتمامها وشغلها عن عملهـا شاب ذو شعـر أشقـر أجعـد وعينين زرقاوين لامعتين لاهفتين،

بينما راحت النكات والتعليقات المرحة المنصّبة على جدة جيمي بيتكن الخيالية تنتقل من فم الى آخر مصحوبة بنفخات كثيفة من دخان التبغ اللاذع.

كان الوجيه المستر جيليباند، سيّد «استراحة الصياد» كما كان أبوه من قبل وجده وجد جده، جالساً امام الوجاق مادا ساقيه على سعتهما يدخن غليونا طويلاً من الطين المجفف كان رجلاً متين البنيان طليق الوجه أصلع قليلاً، فهو بحق نموذج للوجيه الانكليزي الريفي آنذاك - يوم كنا نغالي في الانعزال الى اقصى حد، وكان الانكليزي، لوردا كان أم «يومان» (*) أم فلاحاً، ينظر الى القارة الاوربية كلها على انها بؤرة للرذيلة وينظر الى بقية بقاع العالم على انها مناطق متخلفة يقطنها المتوحشون وأكلة لحوم البشر.

في ذلك المجتمع يقف مضيفنا الوجيه، حسن الهيئة منتصب القامة يدخن غليونه الطويل غير مهتم بأحد من أبناء بلده ومحتقراً كل من هم خارج بلده. كان لابسا الصدار القرمزي التقليدي ذا الازرار النحاسية اللامعة والسروال المقلم السميك الذي ينزل الى مادون الركبتين بقليل والجوارب الصوفية الرمادية الطويلة والحذاء الانيق ذا الزينات تلك الملابس التي تميز كل صاحب خان محترم في بريطانيا العظمى آنذاك. وبينما كانت سالي الحسناء، يتيمة الام، غارقة في دوامة العمل الدؤوب المضني، كان الوالد الوجيه جيليباند منصرفاً الى مناقشة شؤون الدول الاخرى مع بعض ضيوفه الممتازين.

كانت قاعة المشرب تبدو، بفضل النور القوي المنبعث من سراجين لامعين معلقين بالسقف، بهيجة وحميمية الى أقصى درجة. وبدت، من بين سحب دخان التبغ

المتحلقة في أركان القاعة، وجوه زبائن المستر جيليباند متوردة طافحة بالبهجة والرضا عن النفس والمضيف والعالم أجمع. وكانت تصدر من كل جانب قهقهات عالية تصاحب أحاديث بهيجة إن لم تكن ذكية بارعة - بينما دلت ضحكات سالي الناعمة المتكررة على ان المستر [هاري ويت] يستفيد من اللحظات القليلة التي انفقتها في الحديث معه.

كان رواد مشرب مستر جيليباند اغلبهم من صيادي الاسماك. والمعروف عن صيادي السمك انهم في ظمأ شديد دائماً، وذلك لأن الملح الذي يتنشقونه مع هواء البحر هو الذي يجعل ريقهم جافا حين يعودون الى اليابسة. لكن «استراحة الصياد» كانت أكثر من مكان التقاء لهؤلاء الناس البسطاء. فعربة ركاب خط لندن - دوڤر تنطلق من هذا المكان يومياً. وكل المسافرين الذين عبروا القنال الى انكلترا والذين انطلقوا من هناك الى جولة في القارة الاوربية يعرفون المستر جيليباند وخموره الفرنسية وبيرته المحلية القوية.

كانت تلك الأيام الأخيرة من أيلول عام ١٧٩٢. أخذ المناخ، الذي كان رائقاً دافئاً طوال أيام الشهر، يتغير على نحو مفاجىء. فطوال يومين ظلت الامطار الغزيرة تهطل مغرقة جنوبي انكلترا لتتلف محاصيل التفاح والكمثرى والخوخ المتأخر الذي بدأت تنضج على نحو جيد وتصبح فواكه جديرة. بالتقدير. وكان المطر يهطل هذه اللحظة ويضرب زجاج النوافذ، بينما تنفذ قطرات منه عبر المدخنة لتسقط على النار التي في الموقد، فتنبعث هسهسة من الجمر.

تساءل المستر هيمبسيد:

- رباه! أرأيت في حياتك مثل هذا الأيلول الرطب يا مستر جيليباند؟

إحتـل المسـتر هيمبسيـد أحـد المقاعد المحيطة بالموقد لأنه رجل حجـة وشخصيـة مهمـة، لا في «استـراحـة الصياد» حيث كان المستر جيليبانـد يفرد له مكانة خاصة في مناقشاته السياسية، بل وفي المنطقة كلهـا حيث ينظـر النـاس الى سعـة اطـلاعه، وخاصة في تفسير تعاليم الكتـاب المقـدس، باحترام ورهبة عميقين. جلس المستر هيمبسيد - يد في جيب سرواله العـريض الـذي تغطبه سترة سموكنغ طويلة أنيقة وأخـرى تمسـك بالغليون الطيني الطـويـل - ينظر باكتئاب الى قطرات الماء المتكثفة من البخار على زجاج النوافذ. أجاب المستر جيليباند بحكمة:

- كلا. لا ادري يا مستـر هيمسيـد. لا اذكـر. انـا الـذي قضى حوالي ستين سنة في هذه المناطق.

فاعترض المستر هيمبسيد مصححاً:

- نعم! انما اطرح السنوات الثلاثة الاولى من الستين يا مستر جيليباند. لا اذكـر ابـدات ان رأيت طفـلاً أبن ثلاث سنين يفهم بأمـور الطقس، على الاقـل في هذه المنـاطق. وأنـا عشت هنـا ما يقـرب من خمسة وسبعين سنة يا مستر جيليباند.

كانت حكمـة الـرجـل من القـوة ما جعـل المستر جيليباند يلبث ساكتا بعض الـوقت وهـو الـذي اعتاد أن يجادل رأساً. وتابع المستر هيمبسيد كلامه بنبرة حزن وهو يرقب قطرات المطر تهس عند سقوطها على النار:

- يبدو اقرب الى نيسان منه الى أيلول، أليس كذلك؟

فأكد المضيف الوجيه قوله:

- بلا! يبـدو هكـذا، ولكن ماذا تتـوقـع يا مستـر إيمبسيـد، أقـول، من

حكومة كحكومتنا؟

فهز المستر هيمبسيد رأسه بحركة ذات دلالة، كاشفاً بذلك عن ارتياب عميق الجذور بالطقس البريطاني والحكومة البريطانية، وقال:

- لا اتوقع شيئاً يا مستر جيليباند. الناس الفقراء من أمثالنا لا شأن لهم يذكر هناك في لنن (يقصد لندن). أعرف هذا ولا أشكو. لكن عندما يصل الامر الى مثل هذا المناخ الرطب في أيلول وكل فاكهتي تتعفن وتموت مثل بكر «الأم» ولا افعل سوى السكوت، فواكهي العزيزة المسكينة. . . وأترك اليهود والباعة المتجولين وأمثالهم يبيعون برتقالهم وغيره من هذه الفواكه الاجنبية الشرّيرة التي لا يشتريها أحد لو كان التفاح والخوخ الانكليزي كامل الامتلاء ناضجاً. كما يقول الكتاب المقدس. . . .

فرد جيليباند:

- هذا صحيح تماما يا مستر هيمبسيد. وكما أقول: ماذا يمكن أن تتوقع؟ كل أولئك الشياطين الفرنسيين هناك وراء القنال تراهم يقتلون ملكهم ونبلاءهم والمستر پت والمستر فوكس والمستر بيرك (*) يتعاركون ويتصارعون في ما بينهم حول مسألة - هل نسمح، نحن الانكليز، لأولئك الشياطين بالاستمرار في نهجهم الشرير؟ «دعوهم يفعلون!» يقول المستر پت. «أوقفوهم!» يقول المستر بيرك.

فقال المستر هيمبسيد بلهجة قاطعة.

- وأنا أقول «دعهم يقتلون. . واللعنة عليهم»

قال هذا لانه ما كان يرتاح لاراء صديقه، المستر جيليباند، السياسية بينما هو لا يتكلم جزافاً ولا يعرض الا القليل من جواهر حكمته، الامر الذي جعله يتمتع بهذه المكانة المرموقة في المنطقة وبالعديد من

اقداح البيرة مجانا في «استراحة الصياد». كرّر القول:
- دعهم يقتلون، لكن لا تسمح بمثل هذا المطر في أيلول، لأن هذا يخالف القانون والكتاب المقدس الذي يقول....
هتفت سالي:
- يا الهي! أنت تجعلني اقفز فرحا يا مستر اري! (تقصد «هاري»).
لكن من سوء حظ سالي ومغازلات الشبان لها أن تأتي ملاحظتها هذه لحظة كان المستر هيمبسيد يسترد انفاسه خلالها ليلقي بإحدى مواعظ الكتاب المقدس التي اشتهر بها. جاعلة بالتالي غضب الوالد ينصب على رأسها الجميل. فقد قال الرجل محاولا ان يرسم العبوس على وجهه الطيب:
- وبعدئذ يا سالي، يا بنيتي، بعدئذ! كفى مزاحا مع أولئك الشبان الوقحين وانصرفي لشغلك.
- كل شيء على ما يرام يا والدي.
لكن المستر جيليباند رجل عنيد. فقد كانت له حسابات أخرى بالنسبة لابنته الجذابة، طفلته الوحيدة التي سترث «استراحة الصياد» بعدما ينتقل الى رحمة الله. فلم يكن يريد لها ان تتزوج واحدا من هؤلاء الشبان الذين لا يكاد الواحد منهم أن يكسب قوته من صيد السمك الا بشق الانفس. قال مخاطبا ابنته بتلك النبرة الهادئة التي لا يجرؤ أحد في النزل على مخالفتها:
- أما سمعتيي اتكلم يا ابنتي؟ اذهبي لاعداد عشاء اللورد توني لانه اذا لم يكن العشاء أحسن ما عندنا واذا لم يرض فسوف ترين ما يحصل لك. هذا كل ما أقوله.
فأطاعت سالي من غير ارتياح. سأله جيمي بيتكن، في محاولة

مخلصة لصرف انتباهه عن الحالة التي جعلت سالي تغادر القاعة :
ـ اذن فأنت تنتظر ضيوفاً متميزين الليلة يا مستر جيلبياند؟
فأجاب جيلبياند :
ـ أجل! انتظر. أصدقاء اللورد توني نفسه. أمراء وأميرات من وراء البحر هناك انتشلهم اللورد الشاب نفسه والسير اندرو فوكس والنبلاء الاخرون من مخالب الشياطين القتلة.
لكن ذلك كان أكثر مما تحتمله فلسفة المستر هيمبسيد الشكوكية فقال :
ـ رباه! فيم يفعلون هذا يا ترى؟ أنا لست مع فكرة التدخل في أمور الاخرين. كما يقول الكتاب المقدس. . . .
فقاطعه جيلبياند قائلاً برنة سخرية :
ـ ربما يا مستر هيمبسيد، وأنت صديق شخصي للمستر پت وكما تقول مثل المستر فوكس :
« دعهم يقتلون! » تقول أنت. . .
فاحتج المستر هيمبسيد بلهجة ضعيفة :
ـ عفواً يا مستر جيلبياند، ما أظنني قلت هذا قط.
لكن المستر جيلبياند نجح أخيراً في ركوب حصانه الخشبي المفضل ولم تكن عنده نية الترجل عن ظهر الحصان بسرعة.
ـ أو لعلك ارتبطت بصداقة مع بعض أولئك الفرنسيين الذين يقال انهم جاؤوا الى هنا لغرض جعلنا نحن الانكليز نوافقهم على أساليبهم الاجرامية.
فقال المستر هيمبسيد :
ـ لا أدري ما تقصد يا مستر جيلبياند. كل ما أعلم. . . .

فأكد المضيف بنبرة قوية عالية:

- كل ما ادري ان صديقي پيركون، يملك نزل «الخنزير أزرق الوجه» وهو رجل انكليزي حقيقي ومخلص كأحسن ما يكون عليه الانسان في هذه البلاد. انظر اليه الان.. تجده عقد صداقة مع البعض منهم، اكلة الضفادع وصار يخوض معهم في شتى المواضيع وكأنهم انكليز، لا مجرد حفنة من الجواسيس الاجانب الكفرة عديمي الاخلاق. طيب!! وماذا حصل پيركون صار الان يتحدث عن الثورة والحرية ويسقط الارستقراطيون.. تماماً مثل المستر هيمبسيد...

فاعترض هذا ثانية بنفس اللهجة الضعيفة:

- عفواً يا مستر جيليباند، لا أظنني قلت مثل هذا من قبل.

توجه المستر جيليباند بالخطاب الى عموم الموجودين الذين كانوا يصغون فاغري الافواه مرعوبين الى الحديث عن انحرافات المستر پيركون. كان يجلس الى احدى الطاولات رجلان - يبدوان - سيدين من ملابسهما - يلعبان الدومينو سرعان ما أزاحا أحجار الدومينو جانبا وراحا ينصتان الى آراء جيليباند السياسية باستمتاع واضح. ثم اذا بأحدهما، والبسمة الساخرة ما تزال عالقة بزاوية فمه، يلتفت نحو وسط القاعة حيث وقف المستر جيليباند، وقال بهدوء:

- يبدو أنك، يا صديقي المضيف، تعتقد بأن أولئك الفرنسيين - أظنك وصفتهم بالجواسيس - هم من الذكاء بدرجة تجعلهم يملأون رأس صديقك پيركون - اذا جاز التعبير - بهذه الافكار. كيف حققوا هذا في رأيك؟

- رباه! المفروض انهم غلبوه بالكلام يا سيدي. أولئك الفرنسيون، كما سمعت، عندهم قابلية على الثرثرة - وها هو المستر هيمبسيد

يستطيع ان يخبرك كيف يستطيعون أن يلفوا بعض الناس حول اصبعهم.

فتساءل الغريب بأدب:

- حقاً! أهكذا الامر يا مستر هيمبسيد؟

فرد المستر هيمبسيد باستياء شديد:

- لا يا سيدي! لا اظنني أقدر على اعطائك المعلومات التي تريد.

فقال الغريب:

- بحق الايمـــان، اذن، لنأمـل يا مضيفنـا العـزيـز أن لا ينجـح هؤلاء الجواسيس الاذكياء في تشويش آرائك المخلصة القيمة.

لكن هذا كان اكثـر بكثيـر ممـا يتحمله اتـزان المستـر جيليباند، فاذا به ينطلق في نوبة ضحك صاخب سرعان ما شاركه فيها الزبائن المدينون له من الموجودين.

ضحـك مضيفنـا الـوجيـه بمختلف الطبقـات الصوتية: «هاهاها! هوهوهو! هي هي هي!» وضحك حتى تعبت خاصرتاه وسالت الدموع من عينيه:

- علي أنا! إسمعوا! سمعتموه يقول إنهم سيشوشون افكاري؟ ها؟ كان الله في عونك يا سيدي، لكنك تقول أشياء غريبة.

فقال المستر هيمبسيد بطريقته الوعظية:

- حسناً يا مستر جيليباند، أنت تعرف قول الكتاب المقدس:

فرد عليه جيليباند وهو ما يزال ممسكاً خاصرتيه من الضحك:

- انمـا اصـغ الي يا مستر هيمبسيد. الكتاب المقدس ما كان يعرفني. عجبـاً... أنـا يمكن أن اشـرب قدح بيـرة مع واحد منهم، الفرنسيين القتلة، ولا شيء يمكن ان يغيـر آرائي. عجبـاً! أنـا سمعت بأذني من

يقــول إنهم، آكلي الضفــادع لا يقـدرون حتى على تكلم انكليـزيـة الملك بالطبـع لوحاول اي منهم ان يخـاطبني بلغتـه التي يكرهها الله فسأعرفه رأساً ـ أرأيت! وقد أعذر من أنذر، كما يقول المثل.

فوافقه الغريب بمرح:

ـ أجـل! يا صديقي الأمين. أرى أنـك بارع الـذكـاء وتكفي لمجـابهة عشرين فرنسيا. وسوف اشرب نخب صحتك، يا مضيفي المحترم، لو أنــك شرفتني بالاجهــاز على زجـاجـة النبيـذ هذه معي. قال المستـر جيليباند، وهو يمسح الدموع وهي ما تزال تنهمر من عينيه من فرط الضحك:

ـ أنا متأكد أنك رجل غاية في الادب يا سيدي. ما عندي مانع.

ملأ الغــريب قدحين كبيــرين بالنبيـذ فقـدم احـدهمـا الى المضيف المحترم وتناول القدح الاخر. قال، والابتسامة الساخرة المرحة لا تزال تداعب شفتيه الرقيقتين:

ـ لمـا كنـا كلنـا انكليـز مخلصين، لمّـا كنـا مخلصين فيجب علينـا أن نعترف بأن هذا على الأقل شيء جيد يأتينا من فرنسا

فأمن المضيف المحترم على كلامه قائلاً:

ـ أجل! لاأحد منّا ينكر ذلك ياسيدي.

وصاح الغريب بنبرة صوت عالية:

ـ وهذا نخب أفضل صاحب نُزِل في انكلترا، مضيفنا الوجيه، المستر جيليباند.

فهتف الحاضرون إحتفالاً:

ـ هب، هب هورا!

تلا ذلــك تصفيق حاد واختلط دق الاقـداح على الطـاولات الخشبيـة

بالضحـك العـالي ـ دون سبب واضـح ـ وبغمغمـات المستر جيليباند الناطقة بالدهشة

ـ تصـوروا أنيّ أنـا يحـاول بعض الفـرنسيين الكفار التأثير عليّ ! ماذا؟ رعاك الله ياسيدي ، لكنك تقول بعض الاشياء الغريبة .

هذه الحقيقـة أيـدها الغريب بسرور . فمن غير المعقول أبداً القول إنّ أحداً يمكن ان يشوّش اعتقاد المستر جيليباندالراسخ بأن سكان القارة الأوربية كلّهم لاقيمة لهم بأية حال .



الفصل الثالث

(اللاجئون)

كان الشعـور العـام في جميع مناطق انكلترا آنذاك يميل الى النفور من الفرنسيين وأفعالهم. وكان المهربون والتجار الاعتياديون العاملون بين السـاحلين الفـرنسي والانكليـزي يحملون نتفـا من الأخبـار عمـا يجـري هنـاك تكفي لجعـل دم كل انكليـزي شريف يغلي في عروقـه وتجعله يود لو يلقن أولئـك القتلة «درسـاً قاسيـاً»، أولئـك الذين سجنوا ملكهم وجميـع أفـراد عائلتـه وعـرضوا الملكة وأطفالها الامراء الى كل انـواع المهـانـة، بل صار الآن يطـالبـون بأعلى أصـواتهم بسفك دماء عائلته البوربون كلها وكل من ينتمي اليها.

وجاء اعدام الاميرة دولامبال، صديقة ماري انطوانيت الشابة الفاتنة ليملأ قلب كل واحـد في انكلتـرا بالـرعب. وكـانت عمليـات الاعدام

بالجملة اليـوميـة التي يروح ضحيتهـا ملكيّـون من عائلات كريمة كل ذنبهم أنهم يحملون اسماء ارستقراطية، من الفظاعة ما يجعلها تطالب أوربا المتمدّنة كلّها بالانتقام.

ومع ذلك لم يجرؤ أحد على التدخل رغم هذا. فقد استنفد [بيرك] كل مالـديـه من براعة اللّسان في محاولة حث الحكومة البريطانية على محـاربـة حكـومـة فرنسـا الثـورية، لكن المستربت، المعروف بشدة التأني والحـذر، كان يشعـر بأن بلاده لاطـاقـة لهـا على خوض حرب أخرى قاسية باهظة التكاليف. كان على النمسا أن تبادر، النمسا التي تتعـرض إبنتهـا الجميلة الآن الى اهـانـات الغـوغاء وتهديداتهم بعدما أطيحت من العـرش وسجنت. فلا معنى لأن تهب انكلتـرا كلهـا الى حمل السلاح لأن نفراً من الفرنسيين يقتل نفراً آخر- كما يقول المستر فوكس.

أما بالنسبة لمستر جيليباند وأقرانه من الانكليز التقليديين فكانوا ملكيّين معادين للثوريين بكل معنى الكلمة، رغم أنهم يحتقرون كل الاجانب على حد سواء. وكـانـوا في تلك الآونـة ناقمين أشد النقمة على المستر بت لحذره وعدم تهورّه، رغم أنهم لايفهمون، بطبيعة الحال الأسباب الدبلوماسية التي توجه سياسة ذلك الرجل العظيم.

عادت سالي تركض، باديـة الانفعـال واللهفـة. فالجمع الصاخب داخـل قاعـة المشـرب لم يسمـع شيئـا من الضجة في الخارج، لكن سالي لمحت جوادا وراكبـه مبللين بالمطـر يتـوقف عند باب «استراحة الصياد» وفي الوقت الذي انطلق صبي الاصطبل للعناية بالجواد مضت سالي الى البـاب الأمـامي للتـرحيب بالـزائـر. قالت وهي تقطـع قاعة المشرب راكضة:

ـ أعتقد أني رأيت جواد اللّورد توني في الساحة ياأبي .

لكن سرعـان ما انفتـح البـاب وامتـدت ، في اللحظـة التالية ، ذراع مبللة بمـاء المطـر لتطـوق خصـر سالي فيما تردد صوت قوي في اركان قاعة المشرب يقول :

ـ إي . . . بارك الله عينيك السوداوين على قوة الملاحظة هذه ياسالي .

ودخـل الـرجـل فخف المستـر جيليبـانـد المحتـرم بكل لهفة وحماس وعجــل لاستقبـال واحـد من أهم زبـائن النـزل وأفضلهم . قال اللورد انتوني وهو يطبع قبلة على خد سالي المتورد :

ـ والله ، أنـا أحتـج ياسـالي . أنت تزدادين حلاوة كل مارأيتـك ولابد ان صديقي المخلص جيليبـانـد يبـذل كل ما في وسعه لابعاد الشبان عن خصرك النحيل . ماقولك يا مستر ويت؟

لكن المستر ويت كان موزعا بين احترامه للورد ونفوره من هذا النوع من النكات فلم يجب بأكثر من غمغمة مترددة .

كان اللورد انتـوني ديـوهيـرست ، أحـد أبنـاء دوق إكستـر ، نموذجا كاملا للسيد الانكليزي الشاب في تلك الأيام ـ فهو طويل القامة قوي البنية عريض المنكبين طلق الوجه . ترن ضحكته العالية في كل مكان يقصـده . كان ريـاضيا جيدا وصديقا محبوبا وشخصية اجتماعية مؤدبة حسنـة التـربيـة . لم يكن شديـد الذكاء بما يفسد هذه المزايا اللطيفة ، فكـان نجم صالـونـات لنـدن الريفية . كان الجميع يعـرفـونـه في «استراحة الصياد ـ لأنه مولع بعبور القنال الى فرنسا فكان دائما يبيت ليلة تحت سقف المستر جيليباند أثناء ذهابه وعند عودته .

حيّـا ويت وبيتكن والاخـرين بايماءة من رأسه ورفع ذراعه عن خصر

سالي أخيرا ومضى الى الوجاق ليتدفأ ويجفف ثيابه. والقى في طريقه نظرة سريعة مرتابة على الغريبين اللذين كانا قد استئنفا لعبة الدومينو فارتسمت بعض علائم الجد، وحتى القلق، على وجهه الفتي الباسم. لم يدم ذلك سوى لحظة التفت بعدها الى المستر هيمبسيد، الذي رفع يده الى الامام في ما يشبه التحية باحترام، قائلا:

ـ حسنا يا مستر هيمبسيد، كيف حال فاكهتك؟ـ أجاب همبسيد بأسى:

ـ سيئة ياسيدي اللورد، سيئة. لكن ماذا تتوقع من هذه الحكومة هنا.. الآوغاد هناك في فرنسا الذين يقتلون ملكهم ونبلاءهم؟

فرد اللورد انتوني

ـ غرائب الحياة! يفعلون يا همبسيد الطيب، أوعلى الاقل من يقع في ايديهم من عاثري الحظ! لكن عندنا بعض الاصدقاء ممن أفلتوا من مخالبهم سيأتون الى هنا الليلة.

بدا كأن الشاب، وهو يقول هذه الكلمات، القى نظرة تحد على الغريبين الجالسين في الزاوية. قال المستر جيلبياند:

ـ شكرا لك ياسيدي اللورد ولاصدقائك. لقد بلغني الخبر. لكن يد اللورد انتوني هبطت بسرعة البرق على ذراع المستر جيلبياند محذرة وقال بلهجة قاطعة وهو ينظر بحركة غريزية باتجاه الغريبين:

ـ أسكت!

فقال جيلبياند:

ـ أوه! باركك الرب. هما مأمونان ياسيدي اللورد. لاتخف ما كنت لأتكلم لولا علمي بأننا بين اصدقاء. السيد الجالس هناك واحد من رعايا الملك جورج الصادقين الذين لايقلون إخلاصا عنا، أعز الله

مكانك. لقد جاء الى دوفر حديثا وينوي الاستقرار والعمل في هذه البقاع.

- العمـل؟ والله لااراه الا حانـوتيـا. اقسم اني قط لم ارى رجلا له مثل هذه الهيئة الكئيبة.

- لا، ياسيدي اللورد. أعتقد أن السيد أرمل، الأمر الذي يضفي حزناً وكـآبـه على مظهـره لكنه صديق على أيةّ حال وأنا أشهد بذلك ثم أنْت تؤيـد يا سيـدي اللورد ان صاحب النـزل الشعبي أقـدر من غيـره في الحكم على الناس من ملاحمهم.

قال اللورد انتوني:

- آه، حسنا إذن مادمنا بين أصدقاء.

كان واضحا انه لايهتم بمناقشة الموضوع مع مضيفه. وسأله:

- لكن قل لي - ما عندك ضيوف آخرون، أليس كذلك؟

- لا احد يا سيدي اللورد. على الاقل....

- على الاقل؟

- أحد لا تعترض عليه سعادتك، حسب علمي.

- من يكون؟

- حسنا يا سيدي، السير بيري بلاكني وحرمه سيأتيان الا انهما لن يبيتا هنا.

فتساءل اللورد آنتوني بشيء من الدهشة:

- ليدي بلاكني؟

- أجـل يا سيـدي اللورد. قبطـان يخت السير بيري كان هنا قبل قليل. يقول ان شقيق سيدتي الليدي سيغادر الى فرنسا اليوم على ظهر (حلم اليقظة)، يخت السير بيري، وان سير بيري وسيدتي سيرافقانه الى هنا

لتوديعه ارجو ان لااكون ازعجتك، هل ازعجتك يا سيدي اللورد
- لا، لا، لم تُزعجني يا صديقي. لن يزعجني شيء الا اذا كان العشاء الذي تعده الانسة سالي ويقدم في استراحة الصياد دون المستوى المعروف.

فقالت سالي التي كانت في تلك الاونة مشغولة باعداد المائدة:
- لا تخف بشأن ذلك يا سيدي اللورد.

كانت مائدة بهيجة تفتح النفس، تتوسطها باقة كبيرة من أزهار الداليا المتعددةَ الالوان تحيط بها اقداح معدنية لامعة واوان من الخزف الصيني الازرق.

- كم صحن اضع على المائدة يا سيدي اللورد؟
- خمسة مقاعد يا سالي الحسناء، لكن اجعلي العشاء يكفي لعشرة على الاقل. اصدقاؤنا سيكونون تعبانين وجوعانين كما اتوقع. اما بالنسبة لي فأقسم اني استطيع التهام خاصرة بقرة بكاملها الليلة. قالت سالي بلهفة، حين تناهى الى سمعها صوت حوافر جياد وعجلات يقترب بسرعة:
- ها هم، أعتقد.

سادت حالة هرج في قاعة المشرب. فقد كان الجميع متلهفين لرؤية ضيوف اللورد انتوني الكبار القادمين من وراء البحر. فألقت الانسة سالي نظرة سريعة او اثنتين على المراة الصغيرة المعلقة على الجدار

توجه المستر جيليباند الى الباب الامامي ليكون اول من يستقبل الضيوف البارزين. ولم يكن خارج حالة الصخب والتلهف هذه سوى الشخصين الغريبين الجالسين في الزاوية. فقد انصرفا الى لعبة

الـدومينـو بكـل هدوء حتى انهما لم ينظرا مرة واحدة صوب الباب. قال صوت لطيف من الخارج:

- تفضلي يا كونتيسة، الباب على يمينك.

وقال اللورد انتوني مسروراً:

- اي، ها هم قادمـون بخيـر. هيـا يا حسنـائي سالي، اعـدي الحساء باسرع ما يمكن.

انفتـح البـاب على مصـراعيه ودخل الى قاعة المشرب فريق من اربعة اشخـاص - سيـدتـان وسيـدان - يتقدمهم المستر جيليباند وهو لا يكاد يكف عن الانحنـاء. وقـال اللورد انتـوني بمودة دافقة وهو يتقدم باسطاً يديه للقادمين:

- أهلاً بكم! اهلا بكم في انكلترا القديمة:

- قالت احدى السيدتين بانكليزية تشوبها لكنة اجنبية قوية:

- آه، انت اللورد انتـوني ديـوهيـرست، على ما أظن. فقال، وهو يقبل يدي السيدتين بمنتهى الادب:

- في خدمتك يا سيدتي

ثم التفت الى الرجلين فصافحهما بحرارة.

اسـرعت سالي تسـاعـد السيـدتين على نزع عبـاءة السفـر فارتجفت المرأتان واستدارتا نحو النار المتأججة في الوجاق.

دب النشاط في قاعة المشرب فراحت سالي تنتقل بخفة بين القاعة والمطبـخ، بينمـا مضى المستـر جيليبـانـد، وهـو ما ينفـك ينثر تحياته وانحنـاءاتـه، يضـع كرسيـا او اثنين امـام الـوجـاق فيمـا نهض المستر هيمبسيـد تاركـا مكـانـه عنـد الـوجاق رافعا يده الى مقدمة راسه بحركة تحية. وكان الجميع ينظرون الى الاجانب بفضول ولكن باحترام.

مدت اكبر السيدتين يدين ارستقراطيتين ناعمتين نحو النار التماسا للدفء ونظرت بامتنان تعجز عنه الكلمات الى اللورد انتوني اولا ثم الى احد الشابين اللذين جاءابرفقتها كان في تلك اللحظة ملتفا بمعطفه الثقيل ذي القلنسوة، وقالت:

ـ آه يا سادتي! ماذا استطيع ان اقول؟

فأجاب اللورد انتوني:

ـ لا اكثر من انك سعيدة لمجيئك الى انكلترا، يا كونتيسة، وانك لم تعاني كثيرا من رحلتك المتعبة.

فاغرورقت عيناها وهي تقول:

ـ حقا، حقا، نحن سعداء لوجودنا في انكلترا، وقد نسينا الان كل ما قاسيناه.

كان صوتها موسيقيا خافتا ووجهها الارستقراطي الجميل ينطق بكبرياء هادىء وينم عن الصبر النبيل على الاذى والمصاعب، تعلوه ثروة من شعر ابيض كالثلج مصفف عالياً فوق الجبين حسب تسريحات ذلك الزمان.

ـ آمل ان يكون صديقي السير اندرو فوكس اثبت انه رفيق سفر مريح يا سيدتي.؟

ـ آه، بالتاكيد. السير اندروكان تجسيدا للطيبة. كيف نعبر لكم انا واطفالي عن امتناننا ايها السادة؟

كانت رفيقتها فتاة صبية تبدو اقرب الى الطفولة والحزن بما يبدو عليها من علامات الاعياء والاسى. لم تقل شيئا، بل رفعت عينيها السوداوين الواسعتين الغارقتين بالدموع عن النار لتبحثا عن عيني السير اندرو فوكس الذي اقترب من الوجاق ومنها. حتى اذا التقت

عيونهما ونظر السير اندرو الى الوجه الحلو باعجاب صريح سرت ومضة احمرار في الخدين الشاحبين. ثم راحت تنقل بصرها بفضول طفولي بين الـوجـاق وعـوارض السقف الخشبيـة الثقيلة وثيـاب الفـلاحين المشغولة ووجوههم الانكليزية الطافحة بالبشر والصحة وتساءلت:

ـ اذن، هذه انكلترا.

فأجاب السير اندرو باسما:

ـ نتفة منها يا آنسة، انما هي كلها في خدمتك.

فتورد وجه الفتاة ثانية، غير ان ابتسامة مشرقة عذبة اضاءت الوجه الحلو هذه المـرة. لم تقـل بعدها شيئا وسكت السير اندرو هو الاخر، لكنهما فهما احدهما الاخر، وذلك لان الشباب لهم طرقهم في تجاهل العالم الخارجي منذ بدء الخليقة. كسر الصمت صوت اللورد انتوني المرح:

ـ أقـول، العشـاء! العشـاء يا جيليبـانـد الطيّب. اين فتـاتـك الحسناء وصحن الحسـاء؟ عجل يا رجل بدل الوقوف والتحديق في السيدات. سيغمى عليهم من الجوع.

فقال جيلبياند:

ـ لحظة واحدة، لحظة واحد يا سيدي اللورد.

وفتح الباب المؤدي الى المطبخ على مصراعيه ونادي بحماس:

ـ سالي، انت يا سالي، هل انت جاهـزة يا بنيتي؟ وفي اللحظـة التالية ظهـرت سالي عنـد البـا ب حاملة وعـاء كبيرا تتصاعد منه سحابة بخار ويعبق برائحة لذيذة. هتف لورد انتوني بسرور:

ـ العشاء اخيرا!

ومد ذراعه لتتكىء عليه الكونتيسة قائلا بطريقة رسمية:

ـ هل لي أن أنال هذا الشرف؟

دبت حركة في قاعة المشرب: فقد غادر المستر هيمبسيد واغلب الفلاحين والصيادين ليفسحوا المجال امام «الشخصيات البارزة» ويدخنوا غلاينهم في مكان اخر. ولم يبق سوى الغريبين يلعبان الدومينو و يرشفان نبيذها غير عابئين بما يجري. بينما جلس هاري ويت الى مائدة اخرى، بادي الغيظ، يرقب سالي مشغولة بالخدمة على مائدة الضيوف

كانت صورة جميلة للحياة الريفية الانكليزية. فلا غرابة ان تتعلق انظار الشاب الفرنسي المفتون بوجهها الجميل. لم يكن الفيكونت دو تورناي يتجاوز التاسعة عشر من العمر، كان فتى امرد لم تترك «المآسي» الفظيعة التي ارتكبت في بلاده اثرا على وجهه. فكان انيق الثياب ببهرجة وما أن وصل بسلام الى انكلترا حتى بدا مستعدا لنسيان كل فظائع الثورة والاستمتاع بمباهج الحياة الانكليزية. قال، وهو مستمر في التهام سالي بنظراته:

- عفوا، اذا كانت هذه هي انكلترا فأنا مرتاح.

من المستحيل هنا اعطاء صورة صحيحة عن الاستغراب والامتعاض اللذين ارتسما على وجه المستر هاري ويت في تلك اللحظة. ولم يمنعه من تلقين الشاب الفرنسي درسا في الادب الا احترامه «للشخصيات» وخاصة اللورد انتوني. فرد اللورد انتوني موبخا الشاب ضاحكا:

- هذه هي انكلترا، ايها الشاب المتحلل الطائش. وأرجوك... بالله عليك... لا تجلب تصرفاتك الاجنبية المائعة الى هذا البلد الشديد التمسك بالاداب.

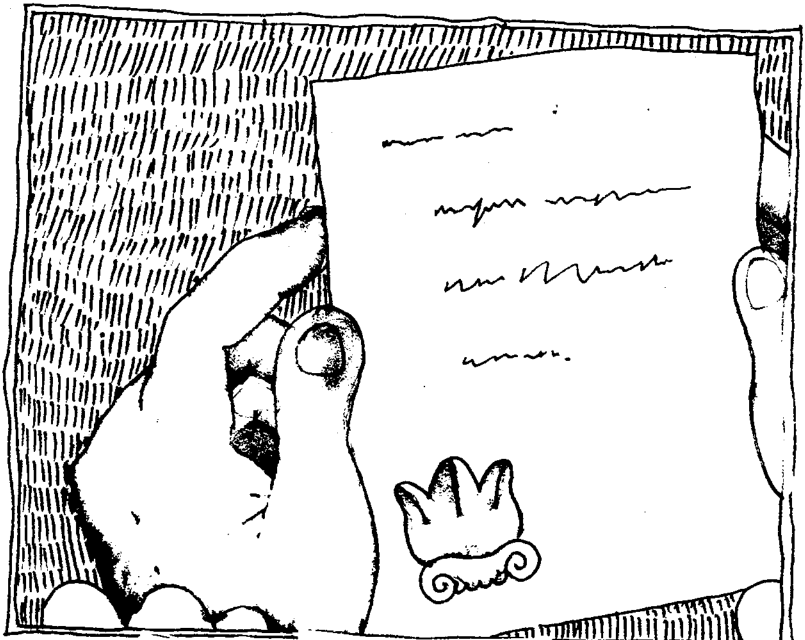
جلس اللورد انتوني الى المائدة والكونتيسة عن يمينه، فيما راح جيليباند يدور بهمة حول المائدة يملأ الكؤوس ويعدل وضع المقاعد ووقفت سالي على اهبة الاستعداد لتقديم الحساء. ونجح اصدقاء هاري ويت اخيرا في اخراجه من القاعة بعدما تعاظم غضبه لرؤية الفيكونت الشاب يبدي اعجابا صريحا بسالي. قالت الكونتيسة منادية بلهجة آمرة عنيدة:

- سوزان

فاحمر وجه الفتاة مرة اخرى. كانت قد نسيت كل من حولها وما حولها وهي واقفة عند الوجاق تاركة نظرت الشاب الانكليزي الوسيم تنساب على وجهها العذب، ويده تستقر على يديها بحركة تبدو كأنها عفوية. لقد اعادها صوت والدتها الى الواقع ثانية فقالت باذعان:

- نعم، ماما.

واخذت مكانها الى مائدة العشاء.



الفصل الرابع
(عصبة الزهرة القرمزية)

بدا الجميع فرحين، بل سعداء، وهم جالسون حول مائدة العشاء. السير اندرو فوكس واللورد آنتوني ديوهيرست، نموذجا للشاب الانكليزي الوسيم المنحدر من أصل طيب والمتربي تربية طيبة، في عام النعمة الربانية ١٧٩٢ هذا. والكونتيسة الفرنسية الارستقراطية وطفلاها الذين هربوا اخيرا من اخطار مميتة ووجدوا الملاذ الامين على شاطىء انكلترا الرؤوفة.

يبدو ان الغريبين فرغا اخيرا من لعبة الدومينو. فقد نهض احدهما موليا ظهره للجماعة وعدل من وضع معطفه ذي الطيات الكتفية الثلاثة بعناية فائقة. والقى نظرة خاطفة الى ما حوله ولما راى الجميع مشغولين بالضحك والاحاديث تمتم بعبارة: «الجو أمين!»، فاذا برفيقه ينزل

على ركبتيه بسرعة وحذر هو وليد خبرة طويلة وينسل خارجاً بكل هدوء من تحت المصطبة الخشبية. عندئذ رفع الغريب صوته عاليا بتحية المساء وخرج من قاعدة المشرب بهدوء.

لم ينتبه احد من الجالسين حول مائدة العشاء الى هذه المناورة الغريبة التي تمت بصمت، ولكن حين خرج الغريب واغلق الباب وراءه تنفس الجميع الصعداء بحركة غريزية. قال اللورد انتوني بابتهاج:

ـ اخيرا، وحدنا!

حينئذ نهض الفيكونت دو تورناي الشاب، والكأس بيده. وبحركة فيها وقار مصطنع، هو مودة ذلك الزمان، رفع الكأس الى اعلى وقال بانكليزية ركيكة:

ـ نخب جلالة جورج ثلاثة، ملك انكلترا، ليباركه الله على استضافته لنا جميعا، نحن المنفيين الفرنسيين المساكين.

فرد اللورد انتوني والسير اندرو وهما يشربان النخب بولاء:

ـ جلالة الملك!

واضاف السير اندرو بوقار:

ـ نخب جلالة الملك لويس، ملك فرنسا. ليحفظه الله وينصره على اعدائه.

فنهض الجميع وشربوا هذا النخب بصمت. ولاح الاكتئاب على وجه المستر جيليباند وهو يفكر بمصير ملك فرنسا السيىء الحظ الذي كان انذاك سجين شعبه نفسه.

قال اللورد انتوني بمرح:

ـ نخب السير الكونت دو تورناي دوباسريف. عسى ان نرحب به في

انكلترا في المستقبل القريب.
رفعت الكونتيسة الكأس الى شفتيها بيد راعشة وهي تقول:
ـ آه ياسيدي. أكاد افقد الامل.

لكن اللورد انتوني كان قد امر بتقديم الحساء وتوقف الكلام خلال الدقائق القليلة التالية بينما انصرف جيليباند وسالي الى توزيع الصحون. وبدأ الجالسون يأكلون. قال لورد انتوني بعد برهة:
ـ اقسم لك يا سيدتي ان نخبي ليس عبثا (من باب جبر الخاطر). عندما ترين انك والانسة سوزان وصديقي الفيكونت قد وصلتم الى انكلترا سالمين فلابد انك ستشعرين بالاطمئنان على مصير السيد الكونت.
تنهدت الكونتيسة بعمق وقالت.
ـ آه يا سيدي، يقيني بالله. لا املك الا ان ادعو من الله وآمل.
وهنا تدخل السير اندرو فوكس قائلا:
ـ أجل يا سيدتي! ثقي بالله في كل الاحوال، ولكن ثقي ايضا بعض الشيء باصدقائك الانكليز الذين اقسموا ان يحملوا الكونت عبر القنال سالما، مثلما جاؤوا بكم اليوم.
أجابت:
ـ حقا، حقا يا سيدي. انا كلي ثقة بك وبأصدقائك. اؤكد لك ان شهرتكم عمت فرنسا كلها. الطريقة التي افلت بها بعض اصدقائي من براثن المحكمة الثورية المخيفة تكاد ان تكون معجزة ـ وهذا كله من صنع ايديكم، انت واصدقائك.
ـ نحن لسنا سوىء الايدي المنفذة يا سيدتي الكونتيسة...
قالت الكونتيسة، وصوتها تخنقه العبرة:

ـ لكن زوجي ياسيد. . هو في خطر شديد ما كان علي ان اتركه لولا . .
ـ لولا . . . . الاطفـال. كنت اتمزق بين واجبي نحوه ونحوهم. رفضوا المجيىء بدوني . . وأنت وأصدقاؤك اكدتم لي بهذا الصدق والنبل بأن زوجي سينجو. ولكن، آه! أنا الان هنا ـ بينكم . . . في هذه الانكلترا الجميلة الحـرة ـ افكـر به . . . يريد الهروب بجلده، مطارد مثل حيوان مسكين . . . في مثل هذه المحنة . . . آه! ما كان علي أن أتركه . . . ما كان علّي أن أتركه!

انهـارت المـرأة المسكينة تماماً. فقد تغلب الاعياء والحزن والعواطف على تمـاسكهـا الارستقراطي. راحت تبكي مع نفسها بهدوء فأسرعت اليها سوزان تحاول أن تقبلها وتمسح دموعها.

لم يقـل اللورد آنتـوني والسيـر اندرو كلمة اثناء حديث الكونتيسة. كان واضحـا انهمـا تأثـرا كثيرا لحالها وكان سكوتهما دليلا على ذلك. ولكن منذ ان وجدت انكلترا بصورتها الحالية والانكليزي يشعر ببعض الخجـل من الافصاح عن عواطفه ومشاعره. ولذا لزم الشابان الصمت وشغلا نفسهما. بمحاولة اخفاء مشاعرهم متظاهرين بأنهما نعسانين.

قالت سوزان فجأة وهي تنظـر الى السيـر انـدرو عبـر خصـلات شعرها الاسود الجميل:

ـ أما بالنسبة لي يا سيدي، فاني اثق بك ثقة مطلقة وأدري بأنك ستأتي بوالدي العزيز الى انكلترا سالماً، تماماً كما جئت بنا اليوم.

قالت الفتاة هذا بثقة عالية وبأمل وايمان صادقين حتى لكأن سحراً مسّ عيني امهـا فجفت الـدمـوع وعلت البسمـة شفـاه الموجودين. أجاب السير اندرو:

ـ لا! انت تخجلينني يا انستي. بالـرغم من اني اضــع حيـاتي تحت

تصرفك، فانا لست سوى اداة متواضعة في يد زعيمنا العظيم الذي رسم خطة الهروب هذه ونفذها.

تحدث السير اندرو بدرجة من الحرارة وشدة الحماس ما جعل سوزان تنظر اليه بتعجب صريح.

قالت الكونتيسة بلهفة:

- زعيمكم يا سيدي؟ آه! بالطبع لابد لكم من زعيم. كيف لم أفكر بهذا من قبل! لكن قل لي أين هو؟ يجب أن أذهب اليه في الحال ويجب أن نركع، أنا وأطفالي، على قدميه ونشكره لكل ما فعله من أجلنا.

فقال اللورد انتوني:

- واأسفاه يا سيدتي! هذا مستحيل.

- مستحيل؟ لماذا؟

- لأن الزهرة القرمزية يعمل في الخفاء ولا يعرف هويته احد سوى اتباعه القريبين الذين اقسموا يمين الولاء والكتمان. قالت سوزان وهي تضحك بمرح:

- الزهرة القرمزية؟ عجيب! ياله من اسم مضحك! ما هي الزهرة القرمزية يا سيدي؟

تطلعت الى السير اندرو بفضول ولهفة. توهج وجه الشاب واشتعلت عيناه حماساً واكتسى وجهه بعلائم التقديس والحب والاعجاب.

قال اخيراً:

- الزهرة القرمزية يا آنسة هو اسم زهرة برية انكليزية متواضعة، لكنه ايضا الاسم الذي يخفي هوية افضل واشجع رجل في العالم، لكي يتمكن بواسطة هذا التنكر من انجاز المهمة النبيلة التي اخذها على

عانقه.

وهنا تدخل الفيكونت الشاب قائلاً:

- سمعت كلاماً عن هذه الزهرة القرمزية. زهرة صغيرة حمراء؟ أجل يقولون في باريس انه كلما هرب واحد من الملكيين الى انكلترا تلقى ذلك الشيطان فوكييه تانقيي، المدعي العام، وريقة تحمل ختم تلك الزهرة الصغيرة الحمراء... أليس كذلك؟

فأكد اللورد آنتوني قائلاً:

- أجل، تلك هي.

- اذن فلابد انه تسلم وريقة كهذه اليوم؟

- بلا شك.

قالت سوزان بمرح:

- أوه! ترى ماذا سيقول! سمعت ان صورة تلك الزهرة الصغيرة الحمراء هي الشيء الوحيد الذي يخيفه.

قال السير آندرو:

- قسماً، اذن، سيجد في المستقبل مناسبات كثيرة لدراسة شكل تلك الزهرة القرمزية الصغيرة.

فتنهدت الكونتيسة وقالت:

- آه يا سيدي! تبدو لي مثل قصة مغامرات رومانسية ولا استطيع ان افهمها.

- لم تحاولين فهمها يا سيدتي؟

- لكن قل لي - لِمَ ينفق زعيمكم.. لِمَ تنفقون كلكم اموالكم وتغامرون بحياتكم - أنتم تغامرون بحياتكم يا سادة حين تطأون أرض فرنسا - لأجلنا نحن الفرنسيين، رجالا ونساء، نحن الذين لا نعني شيئا لكم؟

فاكد اللورد انتوني بصوته المرح العالي البهيج قائلا:
- الرياضة يا سيدتي الكونتيسة، الرياضة - نحن أمة رياضيين، كما تعلمين، ورياضتنا الان هي انتزاع الارنب من بين أنياب الكلب.
- آه، لا، لا، ليست مجرد رياضة يا سيدي... عندكم دافع انبل من هذا، انا واثقة. دافع للقيام بهذه الاعمال الطيبة.
- اذن، بالله عليك يا سيدتي قولي لي ما هوهذا الدافع؟ اما عني فأقسم لك أني أحب الرياضة. وهذه أحلى لعبة مارستها حتى الان - الافلات من الموت في اللحظة الاخيرة... مغامرات الشيطان نفسه!- هيّا بنا! وننطلق هاربين!

لكن الكونتيسة هزت رأسها غير مصدقة. غير معقول، في نظرها، أن تكون الرياضة وحدها التي تجعل هؤلاء الشبان وزعيمهم العظيم، الاثرياء النبلاء الشباب، يعرضون حياتهم للمهالك التي تدري أنهم يتعرضون لها باستمرار. فالجنسية التي ينتمون اليها لا تحميهم في فرنسا. ذلك ان كل من يؤدي اويساعد الملكيين المتهمين يحكم بالاعدام وينفذ فيه الحكم بسرعة، بصرف النظر عن جنسيته. وهي تدري ان هذه العصبة من الشبان الانكليز قد تحدت المحكمة الثورية الحاقدة التي لا ترتوي من الدماء، وداخل اسوار باريس نفسها واختطفت الضحايا المحكوم عليها بالموت من تحت سكين المقصلة. سرت في جسد المرأة رجفة وهي تتذكر احداث الايام القليلة الماضية، وهروبها من باريس مع طفليها، مختبئين ثلاثتهم في عربة حمولة بالية تحت كوم من اللفت والكرنب (اللهانة)، كاتمين الانفاس، بينما جمهور الغوغاء يهدر عند الحاجز الغربي صارخا: «الى جهنم ايها الارستقراطيون!»..

لقد حدث كل شيىء بما يشبه الاعجوبة: عرفت هي وزوجها انهما وضعا في قائمة «الاشخاص المشكوك فيهم» التي تعني ان محاكمتها واعدامهما هي مسألة ايام قليلة وربما ساعات.

ثم جاء امل الخلاص، الرسالة الانسانية التي تحمل ختم الزهرة القرمزية الغامضة: تعليمات قاطعة واضحة. الافتراق عن الكونت دو تونـاري الـذي شق قلب الـزوجـة المسكينـة الى شقين. الامل بالتئام الشمـل. الهـروب مع طفليها. عربة النقل المغطاة. العجوز الشمطاء التي تقـود العـربـة، والتي تبـدو كأنها شيطان رجيم والتذكارات الرهيبة المعلقة في مقبض السوط!

تطلعت الكـونتيسـة من حولهـا الى هذا النـزل الانكليـزي القديم الطراز الى السلام الذي يلف ارض الحرية المدنية والدينية هذه، ثم اغمضت عينيهـا لتطـرد من ذهنهـا صورة الحـاجـز الغربي المخيف وجمهور الغوغاء يبتعدون مرعوبين حين سمعوا العجوز تتحدث عن الطاعون.

كانت تتـوقـع، في كل لحظـة، ان تكتشف وتعتقـل هي وطفـلاها ويحـاكمون ويعدمون. وهؤلاء الشبان الانكليز، الذين يعملون بتوجيه زعيمهم الشجاع الغامض، غامروا بحياتهم لانقاذها هي واطفالها كما انقذوا من قبل عشرات الناس الابرياء.

وكـل هذا حبـاً في الـرياضة؟ مستحيل! قالت سوزان بعينيها للسير انـدرو انهـا تعتقـد بانه هو لاغيره الرجل الذي انقذ الاخرين من الموت المحقق لغـايـة انبـل بكثيـر من مجـرد المتعـة الـرياضية، كما يحاول صديقه ان يقنعها. سألته بخضوع:

- كم عدد اعضاء عصبتكم الشجاعة يا سيدي؟

فأجاب :

ـ عشرون يا انسة . واحد يأمر وتسعة عشر اخرون يطيعون . كلنا انكليز وكلنا اقسمنا نفس اليمين : ان نطيع زعيمنا وننقذ الابرياء .

فهتفت الكونتيسة بحماس :

ـ رعاكم الله كلكم يا سادة .

ـ كان وما يزال يرعانا يا سيدتي .

ـ رائع ! مسألة رائعة في نظري . . ان تكونوا بهذه الشجاعة وبهذا الوفاء لاقرانكم النبلاء ـ مع انكم انكليز ! ـ والخيانة والغدر متفشيان في فرنسا ، كلها باسم الحرية والاخاء .

وقال الفيكونت متنهداً :

ـ حتى النساء في فرنسا صرن أشد حقداً من الرجال علينا نحن الارستقراطيين .

فأضافت الكونتيسة وهي تنظر بكبرياء ومرارة شديدين من خلال دموعها :

ـ آه ، نعم . هناك تلك المرأة ، مرغريت سان جيست مثلاً . دفعت بالماركيز دوسان سير وكل عائلته الى محكمة الارهاب .

سألها اللورد انتوني ، وهو يلقي نظرة سريعة قلقة على سير اندرو :

ـ مرغريت سان جيست ؟ مرغريت سان جيست ؟ متأكدة . . .

أجابت الكونتيسة :

ـ أجل ! لا شك انك تعرفها . كانت ممثلة بارزة في مسرح الكوميدي فرانسيز وتزوجت رجلاً انكليزياً في الاونة الاخيرة . لابد انك تعرفها . . .

فقال اللورد انتوني :

ـ أعـرفهـا؟ أعـرف ليدي بلاكني ـ أشد السيدات اناقة في لندن ـ زوجة اغنى رجل في انكلترا؟ كلنا نعرف الليدي بلاكني .
تدخلت سوزان قائلة :

ـ كانت زميلتي في مدرسـة الـدير بباريس وجئنا الى لندن سوية لنتعلم لغتكم . كنت معجبة بها للغاية ولا اعتقد بانها يمكن ان تقوم بمثل هذا الفعل الشرير ابدا .
قال السير اندرو :
ـ يبـدو غيـر معقـول حقـا . تقولين انها هي التي ادانت الماركيز دوسان سير عمليا؟ علام تفعل شيئا كهذا؟ لابد ان في الامر خطأ ما . . . .
فاعترضت الكونتيسة ببرود :
ـ لا مجال للخطأ يا سيدي . شقيق مرغريت دوسان جيست جمهوري معـروف . ويقـال ان هناك عداوة عائلية بينه وبين ابن عمي ، الماركيز دوسـان سيـر . آل سان جيست من العـامـة والحكـومـة الجمهـوريـة تستخدم جواسيس كثيرين . اوكد لك ان ليس في الامر خطأ . . . الم تسمع بهذه القصة؟
ـ صدقيني يا سيـدتي اني سمعت بعض الشـائعـات عنها ، لكن لا احد يصـدق شيئـا منهـا هنـا في انكلترا . . . السير بيري بلاكني ، زوجها ، رجـل ثري جداً وذو منـزلـة اجتمـاعيـة ساميـة . فهـو صديق أمير ويلز الحميم . . . والليدي بلاكني سيدة الاناقة والصالون في لندن .
ـ يجـوز هذا يا سيـدي . ونحن سنعيش حيـاة هادئـة بالطبع في لندن . لكني ادعو من الله ان لا اقابل مرغريت سان جيست ابدا طالما انا في هذا البلد الجميل .

خيم الفتور على الجلسة المرحة وغلب الاكتئاب على الجالسين الى المائدة. فبدت سوزان حزينة صامتة. وراح السير اندرو يعبث بشوكته قلقا، بينما جلست الكونتيسة عنيدة متصلبة وراء درع احقادها الارستقراطية القاسي. اما اللورد انتوني فقد كان بادي الضيق والقى نظرة قلقة او اثنتين على جيلياند الذي لم يكن اقل قلقا وضيقا.

ومضى اللورد انتوني يهمس في اذن المضيف دون ان ينتبه الاخرون:

- متى تتوقع مجيىء السير بيري والليدي بلاكني؟

فهمس جيليياند مجيباً:

- في اية لحظة يا سيدي اللورد.

وبينما هو يتكلم تناهى الى الاسماع صوت عجلات مركبة اخذة بالاقتراب. ازداد الصوت وضوحا وسمعت صيحة او صيحتان اعقبهما وقع حوافر جياد على ارضية الباحة المعبدة بحجارة غير مستوية. وما هي الا لحظات حتى فتح صبي الاصطبل باب قاعة المشرب ودخل لاهثاً وصاح بأعلى صوته:

- السير بيري بلاكني والليدي... لقد وصلا.

وسمعت صيحات اخرى وجلبة خيول وأعنة (*) وحوافر حديدية تقرع الارض، واذا بمركبة فاخرة تجرها اربعة خيول رائعة تتوقف عند السقيفة الامامية لاستراحة الصياد.



الفصل الخامس
(مرغريت)

عم الاضطراب والتوتر قاعة المشرب البهيجة المسقوفة بخشب البلوط. فما ان اعلن صبي الاصطبل عن وصول عربة السير بيري حتى قفز اللورد انتوني من مكانه، وهو يلعن بطريقة مؤدبة، وانهال بسيل من التوجيهات المضطربة على جيليباند المسكين الذي بدا في حيرة شديدة. قال سيادته مؤنباً:

ـ بالله عليك يا رجل، حاول أن تؤخر الليدي بلاكني في الخارج قليلاً لكي تنسحب السيدتان.

وأضاف، مشفعا قوله بلعنة اخرى:

ـ ويلاه!.يا لسوء الحظ!

ونادى جيليباند، وهو يراوح في مكانه:

ـ أسرعي يا سالي! الشموع!

وصـار يركض هنـا وهنـاك ليضيف الى الاضطراب مزيدا من الفوضى والارتباك. هبت الكونتيسة واقفة ايضاً منتصبة القامة متصلبة، محاولة ان تخفي انفعالها تحت قناع من التماسك. كررت قولها بطريقة ميكانيكية:

ـ لن اراها! لن أراها!

في الخارج كانت جلبة استقبال الضيفين المهمين تعلو أكثر فأكثر:

«ـ طاب يومك يا سير بيري!»

ـ طاب يومك يا صاحبة السيادة!

ـ خادمـك يا سيـر بيـري! كانت هذه العبـارات تتـردد على السن المستقبلين تتخللها عبارات اخرى باصوات ضعيفة متوسلة مثل: «ـ تذكـروا الاعمى المسكين! ـ صدقـاتكم يا سيـدي وسيدتي!». وفجأة سمع صوت عذب متفرد من خلال الباب:

ـ دعـوا الفقيـر يدخـل واعطـوه بعض العشـاء على حسابي. كان صوتا خافتـا ومـوسيقيـاً فيـه بعض الـدلال وقليـل من لكنة أجنبية تتضح عند مخـارج الحـروف السـاكنة. سمعه كل من في قاعة المشرب واصغى اليه بانتباه لا ادري. كانت سالي واقفة عند الباب المقابل المفضي الى غرف النـوم في الطـابق العلوي، حاملة الشمـوع والكـونتيسة مشغولة بالانسحـاب بسـرعـة امـام ذلـك العـدو الـذي يملك هذا الصـوت المـوسيقى العـذب، وسـوزان تتماهل في اللحاق بوالدتها وهي تلقى بنظرات اسف نحو الباب، آملة ان ترى زميلة الدراسة الحبيبة قبل الذهاب.

عندئذ فتح جيليياند الباب على مصراعيه، وهو لما يزل يأمل بغباء

وقصر نظر ان يتجنب الكارثة التي تلوح له على وشك الحدوث. وجاء الصوت الموسيقي العذب نفسه يقول مع ضحكة مرحة وخوف فكاهي:

- برررررررر أنا مبتلة كالسمكة! يا الهي! (*) هل راى احد منكم مثل هذا الطقس التعس؟

قالت الكونتيسة باصرار:

- سوزان، تعالي معي حالاً... أريد ذلك.

فتوسلت سوزان قائلة:

- أوه! ماما!

قال جيليباند، وهو يسد طريق الليدي بلاكني بطريقة خرقاء:

- يا سيدتي... هو.... هي!.... يا سيدتي!

قالت الليدي بلاكني بشيء من نفاذ الصبر:

- سبحان الله، ايها الرجل الطيب. علام تقف في طريقي، تراوح مثل ديك رومي مكسور الرجل؟ دعني اذهب الى الموقد، اكاد اهلك من البرد.

وفي اللحظة التالية ازاحت الليدي بلاكني المضيف الطيب جانبا بلطف وانطلقت داخله الى قاعة المشرب.

هناك لوحات عديدة، منها صور مصغرة لمرغريت سان جيست - ليدي بلاكني كما كانت تعرف انذاك - لكن اية لوحة منها لم تنصف جمالها الفريد. كانت طويلة القامة فوق المتوسط بقليل، ذات قوام ملكي وحضور رائع، حتى ان الكونتيسة وقفت لحظة تنظر باعجاب رغما عنها قبل ان تدير ظهرها لهذا الجمال الاخاذ.

لم تكن مرغريت بلاكني، يومها، قد تجاوزت الخامسة والعشرين

الا بقليـل، وكـان جمـالهـا في ذروة الاكتمال والاثارة. وكانت القبعة الـواسعـة، بريشهـا الناعم المتماوج، تلقي ظلالاً ناعمة فوق الجبين الـذي تعلوه هالـة من الشعـر الكستنـائي. وكـان الـوجـه الخـالي من المسـاحيق في تلك اللحظـة ـ بالفم الطفـولي الجميل والانف الدقيق المستقيم والـذقن المستـدير والرقبة الرقيقة يبدو متجانساً ومتكاملاً مع ازياء ذلك العصر. وكان الرداء المخملي الازرق يلتف على جسدها فيظهر تفاصيله الرائعة، بينما تمسك يدها الصغيرة في جلال خاص، عصـا طويلة مزينـة بباقة كبيرة من الاشرطة، كانت السيدات الانيقات قد بدأن يحملنها في الآونة الاخيرة.

تعـرفت مرغـريت بلاكني بنظرة سريعة على جو المكان، على كل المـوجـودين. فأومأت محييـة للسيـر انـدرو فوكس بينما مدت يداً الى اللورد انتوني وقالت بمرح:

ـ هللو! عجباً يا عزيزي لورد توني. ماذا تفعل انت هنا في دوڤر؟

ثم التفتت، دون انتظار لجواب من اللورد، لتواجه الكونتيسة وسوزان.

اشرق وجهها اشراقة كبيرة ومدت ذراعيها الاثنين للفتاة:

ـ عجبـاً! أهـذه صغيـرتي سوزان هنـا! بالله عليـك، ايتهـا المـواطنـة الصغيرة، كيف حصل أن جئت الى انكلترا؟ والمدام أيضاً!

اتجهت اليهما بمودة شديدة، ولم يكن في تصرفها او في ابتسامتها خيـط من الحـرج. تطلع اللورد انتـوني والسير اندرو الى هذا المشهد بقلق شديد. صحيح أنهما انكليزيان، لكنهما زارا فرنسا مراراً واختلطا مع الفـرنسيين بمـا يكفي لان يعـرفا كم ينظر النبلاء الفرنسيون بعجرفة وكـراهيـة الى كل من ساهم في سقـوطهم. كان ارمـان سان جيست ـ شقيق ليـدي بلاكني ـ جمهـوريـا متحمسـا، وان كان معـروفـا بارائـه المعتـدلـة وميله الى المصلحـة. وادى خلافـه مع عائلتـه سان سيـرـ

العريقة الذي لا يعرف دخائله احد غير الطرفين - الى انهيار تلك العائلة والقضاء عليها كليا تقريبا. فقد انتصر سان جيست وحزبه في فرنسا. وهنا في انكلترا حيث قدم هؤلاء اللاجئون الثلاثة، المطرودون من بلدهم، الناجون بجلدهم والمجردون من كل الترف الذي ورثوه من عدة قرون، هنا تقف امامهم حفيدة جميلة لتلك العائلات الجمهورية التي اطاحت بعرش واقتلعت جذور الارستقراطيين الممتدة في الارض منذ قرون بعيدة.

وقفت امامهم بكل ما للجمال من غطرسة غير واعية ومدت يدها الرقيقة لهم كأنها تريد بهذه الحركة ان تدفن الصراع وسفك الدماء بين الطرفين في السنوات الماضية.

قالت الكونتيسة بعناد وهي تضع يدها على ذراع ابنتها محذرة:

- سوزان، انا امنعك من مخاطبة تلك المرأة.

قالت ذلك بالانكليزية لتجعل الجميع يسمعون ويفهمون: النبيلين الشابين الانكليزيين وصاحب النزل العامي وابنته التي شهقت رعبا امام هذه الوقاحة الاجنبية، هذه الصفاقة في حضرة الليدي التي اصبحت انكليزية بعد زواجها من السير بيري والصديقة الحميمة لزوجة ولي العهد.

أما اللورد انتوني والسير اندرو كأن قلبيهما قد كفا عن الخفقان ذعرا لهذه الاهانة التي لا مبرر لها. فأطلق احدهما صيحة استغراب ورجاء والاخر صيحة تحذير ونظر كلاهما في حركة لا شعورية الى الباب التي، جاء منها صوت مرح بطيء ممطوط.

الوحيد الذي لم يتأثر هي الكونتيسة دوتورناي. فقد ظلت واقفة بجمود وثبات وتحد، . ويدها لما تزل على ذراع ابنتها، كأنها تجسيد لكبرياء لا يلين. في تلك اللحظة غاض الدم من وجه الليدي بلاكني حتى غدا ابيض بلون الشال الناعم الذي كانت تلف به عنقها فيما

ارتجفت اليد التي تمسك بالعصا رجفة خفيفة لا يلاحظها الا من كان دقيق الملاحظة للغاية.

لحظة فقط. ففي اللحظة التالية ارتفع الحاجبان الدقيقان قليلا وتقوست الشفتان نحو الاعلى بسخرية واهتز الكتفان باستخفاف.

قالت الليدي بمرح:

- رويدك، رويدك يا مواطنة؟.... هل لسعتك ذبابة بالله عليك؟

فردت عليها الكونتيسة ببرود:

- نحن في انكلترا الان يا سيدتي، وأنا أملك الحرية على منع إبنتي من لمس يدك صداقة. تعالي يا سوزان.

نادت على ابنتها وغادرت القاعة في جلال بعدما انحنت انحناءة رسمية عميقة للشابين، دون أن تلقي نظرة اخرى على مرغريت بلاكني.

خيم الصمت على سقيفة النزل الامامية العتيقة، لم يسمع خلاله سوى حفيف ثياب الكونتيسة وهي تبتعد. وتابعت مرغريت بنظرة قاسية، وهي جامدة في مكانها كالتمثال، القامة المنتصبة تتوارى وراء الباب. ولكن حين همت سوزان الصغيرة، المتواضعة المطيعة، باللحاق بأمها، اختفت النظرة القاسية من عيني مرغريت فجأة وحلت محلها نظرة ودّ حزينة شبه طفولية

رأت سوزان الصغيرة تلك النظرة فمالت نفسها الطيبة الى المرأة الجميلة التي لم تكن تكبرها في السن كثيراً واذا بالطاعة البنوية تتراجع امام المودة الصبيانية واذا بالصبية تلتفت وتركض عائدة الى مرغريت فتلف ذراعيها حولها وتغمرها بالقبلات الحارة. عندئذ تبعت امها، وسارت في اعقابهما سالي وعلى ثغرها الجميل ابتسامة حلوة بعدما انحنت بالتحية لليدي بلاكني.

أزالت سوزان بمبادرتها الحلوة الرقيقة جو التوتر والانقباض. وتابع

السير اندرو بعينيه الطيف الصغير الجميل الى ان اختفى لتلتقي بعد ذلك بعيني الليدي بلاكني بنظرة مرحة غير مصطنعة.

أرسلت مرغريت قبلة توديع باليد للسيدتين في عطف جميل، بدأت بعدها ابتسامة مرحة تلوح على ثغرها. قالت ببهجة:

ـ هكذا الامر اذن، هكذ؟ لا! هل رأيت يا سير اندرو في حياتك إنساناً بمثل هذه السماجة؟ ارجو الا اكون مثلها حين تتقدم بي السن.

ثم جمعت اطراف ثوبها، مستعيدة هيبتها الملكية واتجهت الى الموقد. قالت مقلدة صوت الكونتيسة بسخرية:

«سوزان، أنا أمنعك من مخاطبة تلك المرأة!»

وضحكت، غير ان الضحكة بدت مغتصبة وجافة بعض الشيء، وان لم يلاحظ اللورد انتوني والسير اندرو ذلك. كان التقليد من الدقة ونبرة الصوت من الشبه ما جعل الشابين يهتفان معا باعجاب: «براڤو!».

وأضاف اللورد انتوني:

ـ آه، يا ليدي بلاكني، لابد انهم يفتقدونك كثيرا في الكوميدي فرانسيز ولابد إن الباريسيين يكرهون السير بيري للغاية لانه اخذك منهم.

فردت عليه مرغريت بهزة من كتفيها الرائعين:

ـ رباه! يستحيل ان يكره، السير بيري لاي الشيء يا رجل. دعاباته الذكية يمكن ان تضحك حتى السيدة الكونتيسة نفسها. هنا بادر الڤيكونت الشاب، الذي فضل البقاء بعد مغادرة والدته المتعجرفة، يخطو الى الامام مستعدا للدفاع عن الكونتيسة اذا ما وجهت الليدي بلاكني اليها طعنات اخرى. ولكن ضحكة بلهاء مرحة جاءت من الخارج، لتقطع عليه كلمات الاحتجاج التي اعتزم ان يقولها. وفي اللحظة التالية بدت عند الباب قامة اطول من المعتاد عليها ثياب نفيسة.



الفصل السادس

(ملك الاناقة لعام ١٧٩٢) أو غندور عام ١٧٩٢

يقول المؤرّخون إنّ السير پيري بلاكني لم يكن في عام ١٧٩٢ قد تجاوز الحادية أو الثانية والثلاثين. طويل القامة فوق المعتاد، حتى بالنسبة للانكليز، عريض المنكبين متين البنيان، جميل الصورة لولا علائم الخمول والكسل التي تلوح في عينيه الزرقاوين العميقتين.

كان قد مضى عام على عودة البارون السير پيري بلاكني، أحد أغنى اغنياء انكلترا وملك الأزياء وصديق أمير ويلز الحميم، من احدى رحلاته الى الخارج بزوجة فرنسية جميلة ذكية ساحرة، أدهش بها الأوساط الراقية في لندن وباث. فهذا البريطاني الأشدّ بريطانية، بما هو عليه من خمول وثقل دم، هذا الرجل الذي يجعل حتى أجمل النساء تتثاءب ضجراً، قد فاز بجائزة أنثوية رائعة سعى الكثيرون للفوز بها كما يقول المؤرخون.

بدأ نجم مرغريت سان جيست الفني يلمع في سماء الأوساط الفنّية الباريسية يوم كانت العاصمة الفرنسية تشهر بوادر اعظم إنقلاب اجتماعي في تاريخ العالم حتى ذلك الحين. كانت في حدود الثامنة عشرة من العمر، تتمتع بقدر كبير من الجمال والذكاء. وحماية أخ شاب مخلص لها. وسرعان ما جمعت حولها، في شقّتها الانيقة بشارع ريشيليو باقة محدّدة من الناس النابهين.. محددّة من وجهة نظر معينة. فقد كانت مرغريت سان جيست جمهورية الاتجاه فكراً وقناعة شعارها ان الناس متساوون في الولادة فعدم تساوي الفرص اذن هو قدر مشؤوم وأن عدم المساواة الوحيد الذي تعترف به هو ما يتعلق باختلاف درجات الذكاء، والموهبة. وكانت ما تنفكّ تقول: «قد تكون الثروة والألقاب وراثية، لكن الذكاء لايورث». ولذا اقتصر صالونها على الاصالة والذكاء. على الالمعية والتوقّد الذهني، على الرجال الاذكياء والنساء الموهوبات. وسرعان ما أصبح دخول هذا الصالون في نظر الأوساط المثقفة التي كانت تجد في باريس مركزاً لها حتى في تلك الأيام العصبية شرطاً للنجاح الفني.

رجال أذكياء، رجال بارزون، رجال ذوو منزلة رفيعة كانوا يشكّلون البلاط الدائم الرائع لممثلة الكوميدي فرانسيز الشابة الفاتنة وكانت تمر عبر شوارع باريس الجمهورية الثورية المتعطّشة للدماء مرور المذنب الساطع تجرّ وراءها ذيلاً من خيرة شباب أوربا ومثقّفيها.

ثم جاءت الذروة. بعضهم ابتسم بتسامح وقال إنّها غرابة أطوار الفنانين، وبعض آخر اعتبرها تأميناً للمستقبل يدلّ على الحكمة بازاء الأحداث الخطيرة التي كانت تتوالى على باريس آنذاك. الاّ أن الدافع الحقيقي لتلك الذروة ظلّ لغزاً محيّراً. الهم أن مرغريت سان جيست

تزوجت السير بيري بلاكني في يوم رائق دون سابق إنذار وبلا حفلة خطوبة أو سهرة زفاف، وما الى ذلك من تقاليد الزواج الراقي عند الفرنسيين.

أمّا كيف أمكن لذلك الانكليزي الغبّي السمج أن يدخل الى تلك الحلقة الذكية المثقفة التي تدور حول «اذكى امراة في اوربا» كما يطلق عليها أصدقاؤها بالاجماع، فلا أحد يستطيع الحدس. بينما قال الناقمون على ذلك الزواج إنّ المفتاح الذهبي يفتح كل الأبواب.

هذا ما حصل. فقد تزوجت «أذكى امرأة في أوربا» ذلك «الأبله اللعين» بلاكني ولم يستطع حتى أقرب المقرّبين اليها من الأصدقاء أن يرجع السبب سوى إلى غرابة الاطوار الشديدة. لقد ضحك الأصدقاء استخفافاً بفكرة أن تتزوج مرغريت سان جيست أحمق طمعاً في ما يقدمه لها من متاع الدنيا. فهم يعرفون حقيقة أنّ مرغريت سان جيست لاتهتم بالمال ولاتقيم وزناً للألقاب. يضاف الى ذلك أنّ هناك عشرات المعجبين الذين يحملون ألقاباً، إنْ لم يكونوا بمثل ثراء بلاكني، كان سيسعدهم أن يقدموا لمرغريت سان جيست ما تحبّ من جاه وألقاب.

أما السير بيري بلاكني فقد أجمع العالم كلّه على أنّه غير مؤهل لتحمل عبء هذا الزواج الذي اختاره لنفسه. إذ يبدو أن أهّم مؤهلاته هو حبّه لها الذي يصل الى حد العبادة وثروته الضخمة ومنزلته العالية في البلاط الانكليزي. لكن المجتمع اللندني كان يرى أنّ من الأفضل لرجل محدود الذكاء مثل بلاكني أن يتزوج امرأة أقل ذكاء وألمعية.

صحيح أنه أصبح في الآونة الأخيرة إسماً بارزاً في عالم الأناقة الانكليزي، الاّ أنه قضى أغلب سني شبابه في الخارج. كان والده المرحوم (السير آلجرنون بلاكني) من سوء الحظ أن أصيبت زوجته الشابة

التي يعبدها، بالجنون بعد عامين من الحياة الزوجية السعيدة .

وكــان بيري قد جاء الى الدنيا قبل وقوع أمّه فريسة للداء الرهيب الذي كان الناس في تلك الأيام يعتبرونه مرضاً لاشفاء منه وأقرب الى اللعنة الآلهية تحلّ على العائلة كلّها.

حمل السير الجرنون زوجته المريضة الى الخارج وهناك درس بيري وتعلم، وهنـاك نشأ بين أم بلهاء وأب مذهول حتى بلغ سن الرشد. وجاءت وفاة الوالدين الواحد في أعقاب الآخر لتتركه حرّاً. ولّما كان السير الجرنون قد عاش حياة بسيطة متقشفة فقد تضاعفت ثروة آل بلاكني عشر مرّات.

تجوّل السير بيري بلاكني في الخارج طويلاً قبل أن يعود الى البلد بزوجتـه الفـرنسية الشـابة. ورحّبت بهما أوساط الترف والاناقة ترحيباً حاراً. فالسـير بيري ثري وزوجتـه رائعـة وقد أعجب ولي العهد بهما اعجاباً شديداً. وأصبحا في مدى ستّة أشهر ملكي الاناقة والذوق بلا منازع. فصارت معاطف السير بيري حديث المدينة وصار الناس يرددون عبـاراته الحمقاء والشباب من أبناء الذوات يقلّدون ضحكته البلهاء. كان الجميع يعرفون أنه غبيّ الى آخر حد، لكنهم ما كانوا يستغربون فهم يعرفون أن آل بلاكني يعانون التخلّف العقلي منذ أجيال وأن والدة السير بيري ماتت مجنونة.

وعلى هذا تقبّله المجتمع ورحّب به واهتم به كثيراً، لأن خيوله هي الأفضـل في البلد وولائمـة هي الاكـبر وخمرة هي الألذّ يسعى اليها الكثـيرون. أمّـا زواجه من «أذكى امرأة في أوربا». . حسناً! هو أراد لنفسه هذا المصير فلا أحد يرثي له! ففي انكلترا العديد من الفتيات جميلات وبنـات عائلات أرستقراطية، كنّ مستعدات لمساعدة بيري

بلاكني على إنفاق ثروته وهن يبتسمن لبلاهته وحماقته اللّطيفة. يضاف الى ذلك أن أحداً لم يرثِ لحال السير پيري لأنّه لم يكن يحتاج الى رثاء ـ فقد كان يتباهى بزوجته الجميلة، على ما يبدو، غير مهتم بما تبديه نحوه من استخفاف، بل أنها كانت تمعن في الاستخفاف به.

لكن بلاكني كان من الغباء ما جعله يعجز عن ملاحظة الاستهزاء الذي تعامله به زوجته الذكية، فاذا كانت حياته الزوجية مع الباريسية الشابة الفاتنة لم تأت متماشية مع ما كان يأمل وما قدّمه لها من إخلاص منقطع النظير، فانّ الناس لم يستغربوا نتيجة كهذه.

وفي بيتهما الجميل في ريشموند كان التابع الأنيس لزوجته الذكية يغدق عليها المجوهرات وأسباب الترف من كل نوع فتتقبلها منه بعظمة وتنعم بكرم قصره الرائع بنفس اللباقة التي كانت تتلقى بها عبارات الاعجاب والثناء من أوساط المثقفين في باريس.

كان السير پيري بلاكني متين البنيان وسيماً بما لا يقبل النقاش ـ هذا إذا استثنينا النظرة الخاملة البليدة التي لاتفارقه. وكان أنيقاً بلاعيب، يلبس الأزياء الفخمة التي زحفت من باريس الى انكلترا بكل ما عرف عن السيد الانكليزي من حسن ذوق أصيل. ونجده في عصر هذا اليوم الخاص من أيلول، ورغم السفرة الطويلة بالعربة ورغم المطر والأوحال، محتفظاً بأناقته ويديه البيضاوين كبياض الأيدي النسوية تبرزان من بين اكمام عريضة من الحرير الموشّى (المطرز) فالسترة الحريرية ذات الصدر القصير والصدار الذي يرتفع الى الرقبة في طّيات عريضة والسراويل المخططة الضيقة التي تصل الى ما دون الركبتين تتناسب مع القامة العملاقة في انسجام تام لايملك المرء إزاءه الاّ الاعجاب بهذه العينة الجميلة من الرجولة الانكليزية، حتى إذا رأى الحركة البطيئة الخاملة

وسمع الضحكة البلهاء تبخر إعجابه بالسير پيري بلاكني في الحال.

راح ينفض قطرات المطر عن معطفه الثمين بتكاسل، ثم وضع عدسة مؤطرة بالذهب على عينه الزرقاء الكسولة وراح يستعرض الحاضرين الذين خيّم عليهم صمت محرج فجأة.

وعندما تعّرف على الشابّين صافحهما قائلاً:

ـ كيف حال. . ياتوني! كيف حال. . يافوكس؟

وأضاف متثائباً:

ـ آرأيت ياصاحبي العزيز، بالله عليك، مثل هذا اليوم، هذا الطقس اللعين؟

التفتت مرغريت الى زوجها ضاحكة ضحكة لطيفة هي بين الشعور بالضيق والسخرية وفي عينيها الزرقاوين الضاحكتين ومضة تهكم. ،

قال السير پيري بعد لحظة صمت لم يعلّق أحد فيها بكلمة:

ـ لا! كأنكم نائمون. . ما الأمر؟

فأجابت مرغريت بلهجة مرحة بدت مغتصبة:

ـ أوه، لاشيء ياسير پيري، لاشيء يؤدّي الى اغضابك.

مجردّ إهانة توجّه الى زوجتك.

كان واضحاً أن الضحكة التي رافقت هذه الملاحظة يراد بها إفهام السير پيري بمدى خطورة الحادثة. والظاهر أنها أدت الغرض المطلوب إذ قال بلهجة ضعيفة:

ـ عجباً ياعزيزتي! أصحيح ما تقولين، بالله عليك! من الرجل الوقح الذي تجرأ على المساس بك، ها؟

حاول اللّورد آنتوني التدخل، لكن بعد فوات الأوان، إذ خطا الفيكونت الشاب الى أمام بسرعة فقال بانكليزية مكسّرة وهو يمهّد

لكلامه بانحناءة بارعة:

- سيدي، إنّ والدتي الكونتيسة دوتورناي دو باسريف قد جرحت شعور السيدة التي أرى أنّها زوجتك. لاأستطيع أن أطلب العفو لوالدتي. ما تفعله صحيح في نظري. لكني مستعد لأن اعرض عليك التسوية المألوفة بين الأشراف.

مدّ الشاب قامته النحيفة الى أعلى ارتفاع، بادي الحماس والكبرياء والحدّة وهو يحدّق في القامة المديدة الرائعة التي يمثلها البارون السير بيرزي بلاكني.

قالت مرغريت، وهي تطلق احدى ضحكاتها المرحة الساحرة:

- بالله عليك ياسير آندرو، أنظر الى هذه الصورة الجميلة.. الديك الرومي الانكليزي والدويك الفرنسي الضئيل.

كان التشبيه دقيقاً بمعنى الكلمة، وقد وقف الديك الرومي الانكليزي ينظر بحرج شديد الى الدويك الفرنسي الضئيل الذي راح يتقافز باستفزاز من حوله. واخيراً وضع السير بيري العدسة على عينه وراح يتفحّص الفرنسي الشاب بأستغراب صريح وقال:

- لا! قل لي ياسيدي، بحقّ طير الوقواق، أين تعلمت التكلّم بالانكليزية؟

شعر الفيكونت بالهوان أمام استخفاف الرجل الانكليزي الثقيل الظل بموقفه القتالي فقال محتّجاً:

- سيدي! انا احتج..

فيما تابع السير كلامه ببروده المعتاد:

- «أنا أحتج» رائع! رائع حقاً! ألا تعتقد ذلك ياتوني.. ها؟

أقسم أني لاأستطيع تكلّم اللّسان الفرنسي هكذا.. ها؟

فردّت مارغريت:

- لا، سأشهد بذلك! السير پيري يتكلم هجة انكليزية واضحة.

اعترض الفيكونت بحماس وبلغة انكليزية أسوأ من ذي قبل:

- أخش أنّك لم تفهم. أنا أعرض عليك التسوية الوحيدة الممكنة بين السادة.

فسأله السير پيري برخاوة:

- ما معنى ذلك بحق الشيطان؟

فأجاب الفيكونت الذي بدأ يفقد السيطرة على نفسه:

- سيفي ياسيدي.

قالت مرغريت بمرح:

- أنت رياضي يالورد توني. اراهن على الدويك بعشرة الى واحد.

لكن السير پيري نظر الى الفيكونت لحظة أو اثنتين من خلال جفنيه الثقيلين شبه المغمضين، ثم تثاءب وتمطّى وتحوّل عنه بتثاقل، مغمغماً بلهجة خفيفة:

- عافاك الله ياسيدي. اللعنة، أيها الشاب، بماذا ينفعني سيفك؟

إنّ ما شعر به الفيكونت وفكر به في تلك اللحظة أمام احتقار الانكليزي العملاق له يملأ مجلّدات. لكن ما تفوّه به كان كلمة رنانّة واحدة استطاعت أن تخرج من بين حشد الكلمات الكثيرة التي حبسها الغضب العارم في حلقومه. قالها متلعثماً:

- مبارزة ياسيدي.

التفت بلاكني ثانية وأطلّ من علياء قامته المديدة على الرجل الضئيل الهائج الواقف أمامه. ولكنه لم يفقد برودة أعصابه المرحة ثانية واحدة، بل أطلق واحدة من ضحكاته البلهاء البهيجة ودفن يديه الناعمتين في

جيبي معطفه الفضفاض وقال بتكاسل :

ـ مبارزة؟ لا! أهذا ما قصده؟ ياللسمكة الغريبة!

أنت أيها الشاب المتوحش المتعطش للدماء. أتريد أن تطعن رجلاً مستقيماً؟

ثم أضاف، وهو يجلس بهدوء ويمدّ ساقيه الطويلتين الكسولتين أمامه :

ـ أمّا عنّي فأنا لاأتبارز قط. أمور غير مريحة لعينة.. المبارزات.. أليس كذلك ياتوني؟

لاشك أن الفيكونت سمع بعض الأخبار عن أن القانون حرّم مودة المبارزة بين السادة في انكلترا تحريماً قاطعاً. لكنه، وهو الفرنسي الذي تقوم مبادىء الشجاعة والشرف عنده على قواعد ترجع الى قرون من التقاليد، فقد رأى في رفض سيد محترم الدخول في مبارزة عملاً شائناً. وراح يفكر: هل يصفع هذا الانكليزي الطويل على وجهه ويصفه بالجبن، أم أن تصرفاً كهذا بحضور سيدة يعتبر تصرفاً غير لائق؟! في تلك اللحظة تدخلت مرغريت قائلة بنبرة مرحة من صوتها الرقيق العذب الموسيقي :

ـ أضرع اليك يالورد توني..

ثم أضافت بشيء من التهكّم اللآذع :

ـ اضرع إليك ان تعمل على احلال السلام. الطفل يكاد ينفجر من الغيظ.. وقد يؤذي السير بيري!

وضحكت ضحكة ساخرة قصيرة لم تفلح قط في تعكير صفو زوجها. قالت :

ـ الديك الرومي الانكليزي متعب. سير بيري لن يفرطّ براحة باله حتى

لو أغضب كل القدّيسين.

لكن بلاكني، الظريف أبداً، شارك زوجته الضحك رغم إرادته. والتفت الى الفيكونت قائلاً بلهجة ضاحكة:

- ذكية حد اللّعنــة، أليس كذلـك؟ زوجتي امـرأة ذكية ياسيدي.. ستكتشف ذلك إذا عشت طويلاً في إنكلترا. هنا تدخل اللّورد انتوني، واضعاً يده بمودّة على كتف الشاب الفرنسي:

- السير پيري محقّ ياڤيكونت. ليس من الصواب أن تبدأ حياتك في انكلترا باستفزازه للمبارزة.

تردّد الفيكـونت لحظة طويلة ثم هزّ كتفيه استغـراباً واستخفافاً من مفاهيم الشرف العجيبة السائدة في هذه الجزيرة التي يلفّها الضباب وقال بوقار جذاّب:

- آه، حسنـاً! إذا رضي السيد فما عنـدي شكـوى. أنت، ياسيدي، حامينا. إن كنت أخطأت فإنّي أسحب نفسي. فردّ بلاكني بزفرة ارتياح طويلة:

- أجل، إفعل! إسحب نفسك الى هناك.

وأضاف بصوت خفيض من بين اسنانه:

- أيّها الجرو الصغير المجنون اللعين. صدقني يافوكس، إذا كانت هذه عيّنة البضائع التي تجلبونها أنت واصدقاؤك من فرنسا، فنصيحتي أن ترمـوا بها في القنال ياصديقي والاّ اضطررت الى رؤية (پت) العجوز حول الموضوع وجعله يتشدّد في تطبيق القوانين ويلقي القبض عليكم بتهمة التهريب.

قالت مرغريت في غنج:

- لا، ياسير پيري. خانتك شهامتك نسيت انك نفسك استوردت رزمة

بضائع من فرنسا.
نهض بلاكني على قدميه ببطء وانحنى إنحناءة عميقة بارعة أمام زوجته وقال بكياسة فائقة:
ـ اخترت بضاعتي من السوق بنفسي ياسيدتي، وذوقي لاغبار عليه.
فردّت عليه بتهكّم:
ـ لامثل شهامتك.. أخش..
ـ تّباً، ياعزيزتي! كوني منصفة! أتظنّين أني اسمح بأن يكون جسمي مخدّة دبابيس لكل قزم من آكلي الضفادع الذين لايعجبهم شكل أنفك؟
فضحكت ليدي بلاكني وانحنت له برأسها إنحناءة صغيرة لطيفة وقالت:
ـ مهلاً ياسير پيرسي! لاتخف! ليس الرجال الذين لايعجبهم شكل أنفي.
ـ عليّ اللّعنة إن كنت أخاف! تطعنين في شجاعتي ياسيدتي؟!
أنـا لاأرعى الحلقة بلا سبب، أليس كذلك ياتوني؟ لقد سبق أن تلاكمت مع سام الأحمر قبل الآن، ولم تجر الامور كما تشتهي على أيّه حال..
ـ ضحكت مرغـريت ضحكـة مرحـة طويلة تردّد صداهـا في أرجـاء السقيفة الأمامية وقالت:
ـ بالله عليك ياسير پيري! وددت لو رأيتك حينذاك..
ها! ها! ها! ها!.. لابدّ أن شكلك كان ظريفاً... و.. وتخاف من صبي فرنسي.. ها! ها!... ها! ها! فاستجاب السير پيري لضحكها:

ـ ها! ها! ها! هي! هي! هي! عجباً ياسيدتي، أنت تشرفينني! عجباً! لاحظ ذلك يافوكس! جعلت زوجتي تضحك! اذكى إمراة في اوربا!

عاد الصفاء الى الجو ثانية واستعاد المستر جيليباند رباطة جأشه بعد جهد جهيد، متخلصاً مما استولى عليه من مشاعر ومخاوف طوال نصف الساعة الماضي. قال السير پيري:

ـ إليّ بقارورة من البنتش(*) والكاستر الحار القوي.. ها! العبقرية التي جعلت إمرأة ذكية تضحك منذ قليل تستحق المكافأة! ها! ها! ها! هيّا اجلبوا لي كاستري اللذيذ!

فتدخلت مرغريت:

ـ لاياسير پيري، لاوقت لدينا. القبطان سيأتي الى هنا رأساً ولابدّ أن يصعد أخي الى سطح اليخت والاّ تأخّر «حلم اليقظة» عن المد.

ـ الوقت ياعزيزتي! هناك متسع من الوقت لأيّ سيّد لأن يسكر ويصعد الى سطح السفينة قبل ارتفاع المد.

قال جيليباند باحترام:

ـ أظن، ياصاحبة السيادة، أن الشاب قادم برفقة قبطان السير پيري.

قال بلاكني:

ـ هذا صحيح. إذن يستطيع آرمان الانضمام الينا على كأس المرح.

ثم أضاف ملتفتاً الى الفيكونت:

ـ أتظنّ ياتوني أن طفلك الشرس هذا سيشارك في شرب كأس؟ قلْ له إنّنا نشرب نخب المصالحة.

قالت مرغريت:

ـ الحقيقة أنكم من الانسجام والانطلاق ما يجعلني واثقة من أنكم

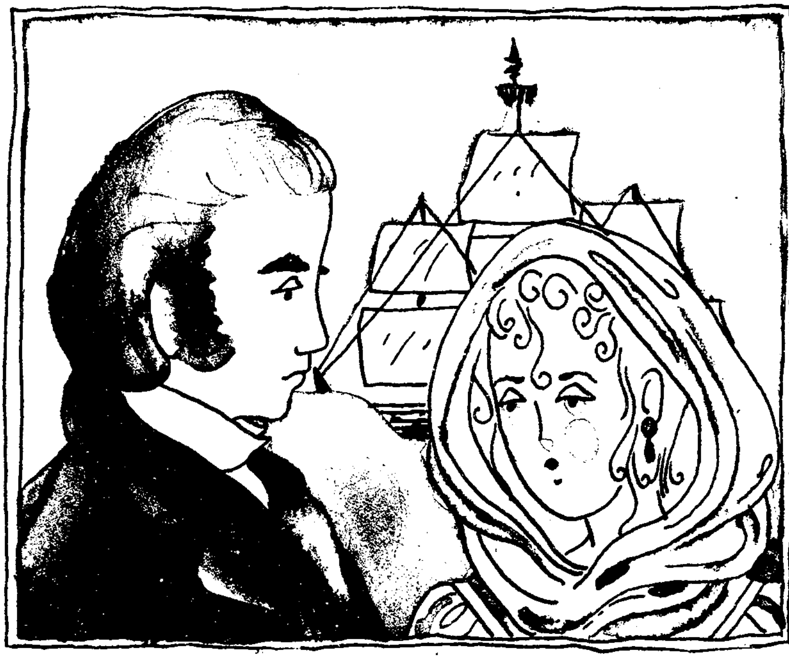
(*) شراب مسكر يحضّر من النبيذ والحليب والليمون والسكّر والتوابل «المترجم»

ستغفرون لي إنْ ذهبت لتوديع أخي في غرفة أخرى.

كانت تلك طريقة سيئة للاحتجاج. فقد شعر كلا اللورد انتوني والسير آندرو بأنّ اللّيدي بلاكني لم تكن مرتاحة تماماً لوجودها معهم. كان حبّها لأخيها آرمان سان جيست عميقاً ومؤثراً الى أقصى حد. وكان قد قضى معها بضعة أسابيع في بيتها الانكليزي وها هو يعود لخدمة بلده في وقت قد ينتهي فيه أشد المخلصين الى الاعدام هناك.

كذلك لم يحاول السير پيري إعاقة زوجته عن الذهاب، بل مضى يفتح لها باب قاعة المشرب بكل ما عرف في ذلك الزمان. فانسابت خارجة دون أن تلقي عليه حتى نظرة احتقار عابرة.

الوحيد، الذي لاحظ النظرة الطافحة بشوق قلق، الزاخرة بحبّ يائس وعميق، التي ودّع بها السير پيري الأبله الخامل طيف زوجته الرائعة، هو السير آندرو فوكس الذي جعله حبه لسوزان دوتورناي أدقّ ملاحظة وأشد رقة وعطفاً من ذي قبل.



الفصل السابع
(البستان السري)

ما أن غادرت مرغريت بلاكني قاعة المشرب الصاخبة وخلت الى نفسها في الممر شبه المعتم حتى تنفست الصعداء فأطلقت زفرة عميقة كمن تحرر من عبء ثقيل فرضه عليه ضبط النفس وتركت دموعا قليلة تنساب على خديها.

كان المطر قد توقف وبدأت خيوط باهتة من ضوء شمس مابعد المطر تنسل من بين الغيوم العابرة لتنير ساحل (كينت) الابيض المدهش والبيوت الصغيرة المتباينة المتحلقة حول «رصيف الأمبرالية».

خرجت مرغريت بلاكني الى السقيفة ونظرت الى البحر. هناك كانت سفينة مهيبة ذات ثلاث صواري واشرعة بيض، ينفخ الهواء

الخفيف باشرعتها فتتراقص على الامواج في رقة. انها «حلم اليقظة»، يخت السيريري بلاكني، الذي كان في انتظار ارمان سان جيست ليعود به الى فرنسا، الى قلب الثورة العارمة الدموية التي أطاحت بالملكية وهاجمت الدين وحطمت المجتمع في محاولة لان تبني من جديد على حطام التقاليد جمهورية فاضلة جديدة(*)، حلم بها البعض ولكن لم يستطع احد اقامتها.

لاح في البعد شخصان يقتربان من «استراحة الصياد». احدهما رجل متقدم في السن تحيط بدقنه العريض لحية دب اليها الشيب يمشي بطريقة تدل على انه ملاح. اما الاخر فشاب نحيف قليلا يلبس بدلة قاتمة أنيقة جذابة فوقها معطف ذو طّيات كثيرة كان حليقا وشعره القاتم مسّرح الى الوراء بطريقة جميلة تكشف عن جبين ناصع نبيل.

هتفت مرغريت بلاكني، حال ما رأته قادما من بعيد:

ـ آرمان!

وارتسمت ابتسامة سعادة على وجهها العذب من خلال الدموع وماهي الا دقيقة اودقيقتين حتى اخذ الاخ واخته احدهما الاخر بالاحضان فيما وقف الربان جانباً باحترام. سألته الليدي بلاكني:

ـ كم لدينا من الوقت قبل رحيل المسيو سان جيست يابريغز؟

أجاب الرجل الشيخ، رافعاً يده الى جبهته بالتحية:

ـ علينا أن نرفع المرساة قبل نصف ساعة من موعد السفر ياصاحبة السيادة.

فتأبطت مرغريت ذراع شقيقها وسارت معه نحو صخور الشاطيء قالت، وهي تنظر الى البحر بحزن:

ـ نصف ساعة.. نصف ساعة وتبعد عني ياارمان!

آه! لااصدق انك راحل عني ياعزيزي! هذه الايام القليلة الماضية، حين كان بيرسي مسافراً وكنت لي وحدي، كيف مرت كالحلم!

فقال الشاب برقة:

ـ أنا لست ذاهباً الى مكان بعيد، ايتها العذبة. مجرد قنال ضيق يفصل بيننا ـ وبضعة أميال.. استطيع العودة في الحال.

ـ لا.. ليست المسافة ياآرمان، بل باريس المخيفة.. في الوقت الحاضر..

وصلا الى حافة الصخور. راح نسيم البحر الرقيق يداعب شعر مرغريت وينثره حول وجهها ويجعل اطراف اشرطة الدانتيل الناعمة البيضاء تلتف مثل أفاع لينة حوله. نظرت الى البعيد محاولة أن تتمثل في ذهنها ماوراء الشاطيء الفرنسي: الى فرنسا العنيدة المتصلبة تلك التي تستوفي الان دينها من لحم الانسان، ضريبة من أنبل أبنائها.

قال آرمان، كأنه يحدس ما تفكر به:

ـ بلادنا الجميلة يامرغريت.

فقالت بغضب عنيف:

ـ لقد تجاوزوا الحد ياآرمان. أنت جمهوري وأنا ايضا.. نحمل نفس الافكار، نفس الحماس للحرية والمساواة.. لكن حتى أنت يجب أن ترى أنهم جاوزوا الحد..

قال آرمان محذراً بصورة غريزية وهو يتلفت من حوله خائفاً.

ـ هش!

ـ آه! أترى؟ أنت نفسك صرت تخشى الكلام في هذه الامور ـ حتى هنا في انكلترا!

وفجأة تشبثت به بقوة كأم تتشبث بابنها وتوسلت اليه:

ـ لاتذهب ياآرمان! لاترجع! ماذا أفعل لو. . لو. . لو. . وخنقت العبرة صوتها وراحت عيناها الزرقاوان الرقيقتان المحبتان تنظران الى الشاب بتوسل، بينما راح هو ينظر اليها بثبات، ثم قال بلطف:

ـ تكونين، في كل الاحوال، أختي الشجاعة التي يجب ان تتذكر، حين تكون فرنسا في محنة، أن على أبنائها ان لايديروا لها ظهورهم.

عادت تلك الابتسامة العذبة الطفولية ترتسم على وجهها، وهو يتكلم. انما كانت ابتسامة حزينة كل الحزن، غارقة في الدموع قالت بنبرة غريبة:

ـ آه! آرمان! أتمنى أحيانا لو انك لاتملك كل هذه الفضائل السامية. . أؤكد لك ان الخطايا الصغيرة أقل خطراً وأذى بكثير.

وأضافت بضراعة:

ـ لكنك ستكون حذراً؟

ـ قدر المستطاع. . . أعدك.

ـ تذكر ياعزيزي أني لااحد لي غيرك. . . يهتم بي. .

ـ لا ياحلوتي. . عندك اهتمامات اخرى الان. بيري يهتم بك. .

فتسلّل حزن غريب الى عينيها وهي تغمغم:

ـ كان يهتم. . . في الماضي.

ـ لكن أكيد. . .

ـ مهلاً، مهلاً ياعزيزي. لاتحزن نفسك من أجلي.

بيري رجل جيد جداً. . .

فقاطعها بحماس:

ـ لا! سأحزن نفسي من أجلك يامارغوتي. إصغي الي ياعزيزتي. أنا لم اتكلم عن هذه الامور معك من قبل. شيء ما كان يمنعني دائماً من

أن استفسر منك. لكني أشعر الان بأني لن أغادرك قبل أن اطرح عليك سؤالا واحداً...

وأضاف لما لمح نظرة حادة فيها خوف تومض في عينيها:

ـ لاحاجة بك الى الاجابة اذا لم ترغبي.

سألته ببساطة:

ـ ماهو؟

ـ هل يعرف السير عن... أقصد هل يعرف عن دورك في اعتقال الماركيز دوسان سير؟

فضحكت ضحكة احتقار مريرة لامرح فيها، أشبه بصوت وتر ناشز في موسيقا صوتها:

ـ أي حين بلغت محكمة الثورة عن الماركيز دوسان سير التي ارسلته هو وعائلته في نهاية الامر الى المقصلة؟

أجل يعرف... أخبرته بذلك بعد زواجنا...

ـ أوضحت له كل الظروف والملابسات ـ التي تبّرئك من كل ذنب؟

ـ الحديث عن «الظروف والملابسات» جاء بعد فوات الاوان. لقد سمع القصة من مصادر اخرى. اعترافي جاء متأخراً جداً على مايبدو. فلم تعد أمامي ظروف مخففة: لم احط من قدري بمحاولة شرح الظروف...

ـ و؟

والآن يكفيني ياآرمان أن اعرف ان الاحمق الاكبر في انكلترا يحمل أشدّ الاحتقار لزوجته.

كانتِ تتكلم بمرارة شديدة هذه المرة، وشعر آرمان سان جيست،

الـذي كان يحبهـا حباً جمـاً، بأنـه وضـع إصبعـه بحماقة على موطن جرح. فكرر القول بلطف:

- لكن سير پيري يحبك يامارغو.

- يحبني؟ حسناً ياآرمان. ظننت أنه أحبني والا ماكنت تزوجته.

وأضافت متحدثة بسرعة كمن يريد أن يزيح عبئاً ثقيلاً رزح تحت وطأته شهوراً:

- يخيـل الي . . . يخيـل الي انـك انت ايضـا اعتقـدت - كمـا اعتقـد الاخرون - بأني تزوجت سير پيري طمعاً في ثروته.

أؤكـد لك ياعـزيـزي أن المسألـة ليست هكذا. كان يعبدني، كما يبدو، بدرجة غريبة من التعلق جعلت قلبي ينفتح له. لم أحبب أحداً من قبـل، كمـا تعلم. وكنت في الـرابعـة والعشرين حينذاك - كان من الطبيعي أن اعتقـــد بأن الحب لايتمـاشى مع طبيعتي. لكنني شعـرت دائمـا بأنهـا نعمة ربانية أن يحبني احد حباً اعمى . . . ان يهيم بي الى هذا الحـد . أن يعبـدني في الحقيقـة - كما أن حقيقة كون سير بيري خامـلاً وغبيـا كانت نفسها عامل جذب لي، إذ اعتقدت بأنه سيهيم بي اكثـر فاكثـر. للرجـل الذكي اهتمامات اخرى طبعا وللشخص الطموح آمـال أخـر. . . اعتقـدت بان الاحمق سيعبـدني ولايفكر بشيء آخر. وكنت مستعـدة للاستجـابـة ياآرمـان. كنت سأسمـح لنفسي بأن أكون معبودة وأن اعطي منتهى الحنان بالمقابل. .

تنهـدت. وكـانت زفرة تحمل في ثناياها دنيا من التفتح على الواقع. كان آرمان قد تركها تتكلم دون مقاطعة: اصغى اليها بينما كانت افكاره تسرح بحرية. شيء فظيع ان ترى إمرأة جميلة وشابة - بل فتاة في كل شيء - لم تكـد تدخـل معتـرك الحيـاة - مجـردة من الامل، مجردة من

الاوهـام، مجـردة من تلك الاحلام الذهبية الساحرة الكفيلة بأن تجعل شبابها عيداً دائماً.

ربما فهم ـ رغم حبه الشديد لاخته ـ ربما فهم الامر:

لقـد درس احـوال الـرجـال في بلدان كثيـرة. . رجـال من كل الاعمـار. . رجـال من مختلف المستـويـات الاجتمـاعية والثقافية. . وفهم مع نفسـه ما لم تذكـره مرغـريت. لاجـدال في أن بيـري بلاكني رجـل بليـد غبي، لكن مازال في ذهنـه القـاصـر مكـان لشعـور راسـخ بالكبـريـاء مرده أن الـرجـل ينحدر من سلالة انكليزية عريقة. فأحد آل بلاكني مات في معركة (بوزورث فيلد). وضحى آخر بحياته وثروته من أجـل واحـد غادر من آل ستيـوارت. وهـذا الكبـريـاء نفسـه ـ الاحمق المتعصب كمـا يصفـه آرمـان الجمهوري ـ هو الذي تلقى طعنة قاسية حين سمـع بيـري بخطيئـة الليـدي بلاكني. كانت صبيـة، طائشـة مخدوعة ربما. آرمان يعرف ذلك، ويعرفه أولئك الذين استغلوا شباب مرغـريت وانفعـالهـا وتهـورهـا. لكن بلاكني غبي، فلم يستمـع الى موضوع «الظروف والملابسات»، وتشبث بالحقائق حسب.

وهـذه الحقـائق تقول ان ليدي بلاكني وشت بنبيل مثله الى محكمة لاتعرف المغفرة وأن بيري يحتقر هذا العمل، حتى لو لم يكن مقصودا وأن هذا كفيـل بأن يقتـل حبـه الذي لايمكن للتعاطف والفطنة أن يلعبا فيه اي دور.

ومـع ذلـك مازالت شقيقتـه تحيـره حتى الآن. فالحيـاة والحب من الاهواء الغريبة حقاً. ايمكن ان تكون حاجة مرغريت الى حب زوجها قد ايقظت في قلبهـا الحب له؟ متنـاقضـات غريبـة تلتقي في طريق الحب: هذه المرأة التي سجد لها نصف أوربا الذكية المثقفة قد تكون

منحت قلبها الاحمق . كانت مرغريت تحدق في قرص الشمس الغاربة، فلم يستطع آرمان رؤية وجهها، لكنه احس فجاة بأن شيئاً لمع في ضوء الغروب الذهبي لحظة، قد سقط من عينيها على شالها الرقيق . لكنه لم يستطع فتح ذلك الموضوع معها . كذلك كان يعرف

طبيعتها العاطفية الغريبة ويعرف اي تكتم وراء تصرفاتها المباشرة الصريحة . لقد عاش هذان الاثنان معاً كل الوقت فقد توفي والداهما يوم كان آرمان صبياً ومرغريت بعد طفلة كان اكبر منها بحوالي ثماني

سنوات فتولى أمرها الى أن تزوجت ورعاها خلال تلك السنوات الرائعة التي قضياها في شقتهما بشارع ريشيليو، ورآها تدخل حياتها الجديدة هنا في انكلترا، شاعراً بحزن شديد وبشيء من التوجس .

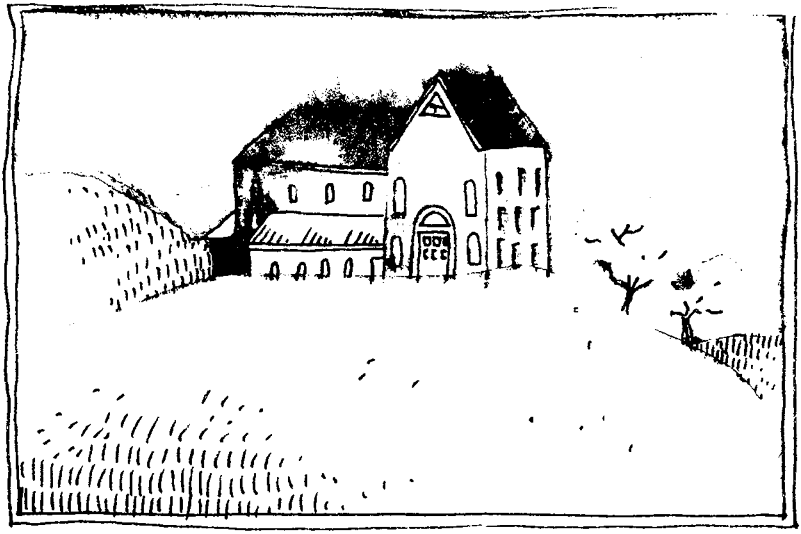
كانت هذه زيارته الاولى لانكلترا منذ زواج شقيقته . ويبدو أن الأشهر القليلة من الفراق قد أقامت شيئاً من حاجز بين الاخ وأخته .

صحيح ان نفس الحب الشديد العميق مازال يربط بين الاثنين انما يبدو ان كل واحد منهما قد أقام لنفسه بستانه السري الخاص الذي لايجرؤ الاخر على دخوله .

كان هناك الكثير مما يمكن لـ[آرمان سان جيست] أن يقوله لاخته .

فالوجه السياسي للثورة في فرنسا يكاد يتغير كل يوم . وهي لاتفهم كيف يمكن ان تتغير نظراته وعواطفه وحتى لو زادت فظاعة الجرائم التي يرتكبها اولئك الذين كانوا اصدقاءه ومرغريت هي الاخرى لاتستطيع ان تفضي لاخيها بما في قلبها من اسرار لاتفهمها هي نفسها . كل الذي تعرف انها تشعر بالوحدة والبؤس وسط البذخ .

وهـا هو ارمـان يرحـل . كانت تخاف عليه وتفرح لوجوده معها . ولم تكن تريـد افسـاد هذه اللحظات الاخيرة الحلوة الحزينة بالحديث عن نفسهــا . اخـذتـه من يده بلطف وسـارت به على الصخـور ونـزلا الى الشـاطيء متأبطـة ذراعـه . كانـا يريـدان ان يقـولا الكثير مما هو خارج البستان السري لكل منهما .



الفصل الثامن
(المندوب المعتمد)

انقضى وقت العصر بسرعة وبدأ مساء الصيف الانكليزي البارد الطويل ينشر عباءته الضبابية على رحاب كينت الخضراء.

اقلع «حلم اليقظة» ولبثت مرغريت بلاكني واقفة وحدها على صخور الشاطيء اكثر من ساعة ترقب الاشرعة البيض التي ابتعدت عنها بسرعة حاملة الكائن الوحيدة الذي يهتم بها حقاً، وتجرؤ على أن تحبه وتعلم انها يمكن ان تثق به.

بدأت أنوار قاعة المشرب في استراحة الصياد تلمع من بعيد بلون اصفر خلال الضباب النازل. وكانت اعصاب مرغريت متوترة فخيل اليها أنها تسمع من حين لآخر اصوات الصخب والاحاديث المرحة، او حتى الضحكة السخيفة الابدية التي تثقل باستمرار على اذنيها المرهفتين.

استمتع السير بيري بترك مرغريت وحدها بقسوة وافترضت هي انه ربما يكون بما هو عليه من فطرة طيبة غبية، قد فهم انها ترغب في الانفراد لتتطلع الى تلك الاشرعة البيض وهي تتوارى خلف الافق المعتم واكثر من هذا انه، وهو الذي يتقيد الى درجة الحساسية بمقتضيات اللياقة والمظهر، لم يقترح عليها ان يرافقها احد الخدم، فشعرت بالامتنان نحو زوجها لهذا كله. بل انها كانت تحاول دائما التعبير عن امتنانها لكرمه الذي لاحدود له. وحاولت احياناً ان تبعد عن ذهنها الافكار المتهكمة المريرة التي تجعلها ـ رغماً عنها ـ تتفوه باشياء قاسية مهينة في محاولة يائسة لجرح شعوره.

أجل! لكم تمنت أن تجرح شعوره، إن تجعله يشعر بأنها هي الاخرى تحتقره، انها نسيت ايضا انها كادت يوما ان تحبه تحب ذلك الطاووس الابله!

الذي لاتتجاوز اهتماماته كيفية شد ربطة او اختيار تفصيلة سترة. باه! وبعد!... ذكريات مبهمة... عذبة متوهجة. متناغمة مع أمسية الصيف الهادئة هذه منها حملتها الى ذاكرتها أجنحة نسيم البحر الخفية: أيام كان يعبدها ـ كان متفانياً، عبداً بمعنى الكلمة، وكان في حبه نوع من التعلق الكامن الخاص الذي فتنها.

فجأة اختفى تماما ذلك الحب، ذلك التفاني الذي كانت تعتبره طوال فترة التودد اشبه بوفاء الكلب. فبعد اربع وعشرين ساعة من اتمام مراسيم الزواج البسيطة في كنيسة سان روش العتيقة اخبرته كيف انها تكلمت دون انتباه عن أمور معينة تتعلق بالماركيز دوسان سير امام بعض الاشخاص ـ من اصدقائها ـ الذين استغلوا هذه المعلومات ضد

الماركيز السيء الحظ وأرسلوه هو وعائلته بذلك الى المقصلة .

كانت تكـره المـاركيـز. فقبـل سنين احب آرمـان ، شقيقها الحبيب آنجيل ، ابنه سان سير. لكن آرمان سان جيست كان من عامة الشعب والمـاركيـز رجـل متعجرف شديد التمسك بالفوارق الطبقية . وفي احد الايـام غامـر آرمـان ، العـاشق المؤدب المسالم ، بارسال قطعة شعرية تفيض حبـاً وحمـاسـاً الى ملكـة أحـلامه . وفي الليلة التالية جرّه خدم المـاركيـز الى خارج باريس حيث طرحـوه أرضـاً وجلدوه بالسيـاط كما يجلد الكلب حتى أوشك على الموت ـ لمجرّد انه تجرأ ورفع عينيه الى أبنـة الارستقـراطي . كانت تلك الحادثة منظراً مألوفاً في فرنسا آنذاك ، قبـل الثـورة العظمى بنحـو سنتين . والحق ان حوادث كهـذه هي التي قادت الى الانتقـام الـدمـوي الـذي ارسـل بالعـديـد من تلك الرؤوس المتعجرفة الى المقصلة .

تذكـرت مرغـريت كل ذلـك : ماعـانـاه شقيقهـا من احتقار لرجولته وطعنـة قاسيـة لكبريائه . . ولم تحاول قط أن تحلل ماقاساه شقيقها وما سبب لها ذلك من ألم .

ثم جاء يوم تصفيـة الحسـاب . ليجـد سان سيـر وأمثاله أن اسيادهم الان هم ابنــاء الشعب الــذين كانـوا يحتقـرونهم . لقـد اعتنق آرمـان ومرغريت الذكّيان المثقفان بكل ما فيهما من حماس الشباب ، مباديء الثورة الداعية الى الجمهورية الفاضلة ، بينما راح الماركيز دوسان سير وعـائلتـه يحـاربـون بضراوة من اجل استعادة الامتيازات التي وضعتهم اجتمـاعيـاً فوق أمثـالهم من البشر. كانت مرغريت ، السريعة الغضب المنـدفعـة بلا تفكيـر ولا حسـاب لعـواقب كلماتها ، التي لما تزل تفور غضباً للاهانة الفظيعة التي تلقاها شقيقها على يد الماركيز، قد سمعت

من بعض معجبيهـا أن ال سان سيـر يتبـادلون رسائل خيانية مع النمسا بأمـل الحصـول على تأييد الامبراطورية على سحق الثورة المتصاعدة في بلادهم .

كانت اخبـارية واحدة تكفي في تلك الايام : واذا بالكلمات القليلة المتسـرعـة التي قالتهـا مرغـريت عن المـاركيز دوسان سير تأتي بنتائج خلال اربـع وعشـرين ساعـة . فاعتقـل وفتشـوا في أوراقه ليعثروا على رسـائـل من الامبراطور النمساوي يعد فيها بارسال قوات لضرب سكان باريس . فوجهت الى المـاركيـز تهمـة خيانة الامة وأرسل الى المقصلة وشاركه مصيره المؤلم زوجته وأولاده .

ارتعبت مرغـــريت ممـا ترتب من نتـائـج فظيعـة على تهـورهـا وقلة ادراكهـا . وأسقـط في يدهـا فلم تتمكن من انقـاذ المـاركيز. اما حلقة المعجبين بهـا ، من قادة الحـركـة الثـوريـة ، فاعتبـروهـا بطلة . وحين تزوجت السير بيري بلاكني لم تكن تدرك جيداً كم كان ينظر باستنكار الى الخطيئة التي ارتكبتها دون قصد وماتزال تثقل على ضميرها . لقد اعتـرفت لزوجهـا بكـل شيء ، معتمدة على حبّه الاعمى لها ومالها من سلطـــان عظيم عليـه ، آملة ان تجعله ينسى سريعـا مايمكن أن يكـون سيء الوقع على الاذن الانكليزية .

ساعتهـا تقبّـل الامـر بهدوء شديد بالتأكيد ، بادياً عليه كأنه لم يفهم معنى أقـوالهـا . لكن الذي لاشك فيه حقيقة أنها لـم تر في عينيه بعدئذ اية دلالة على حبه الذي اعتقدت مرّة بأنه لن ينطفيء . هاهما الان قد ابتعـدا عن بعضهمـا البعض اذ يبـدو ان السيـر بيـري قد رمى بحبه لها جانبـاً كمن يلقي بقفـاز غيـر مريـح . وحـاولت ان تستثيـره بسخـريتهـا اللاذعة من غبائه ، وبذلت جهوداً لاثارة غيرته . فاذا هي لـم تستطع ان

تستثير حبه فلتحاول إذن ان تستحثه على توكيد ذاته! لكن لاجدوى.

لقد ظل كما هو ذلك الكسول الخامل ذو اللهجة الرخوة، المجامل دائماً والمؤدب بصورة ثابتة: لقد نالت كل ما يمكن ان يقدمه رجل ثري لامرأة حسناء، لكنها شعرت، في أمسية الصيف الجميلة هذه والافق البعيد يتبلع اشرعة «حلم اليقظة» البيض، بأنها اشد وحدة من متشرد بائس يجر قدميه على ضمور الشاطيء.

زفرة مرغريت بلاكني زفرة حارة اخرى وادارت ظهرها للبحر والصخور وعادت ببطء الى «استراحة الصياد». واذ اقتربت صارت تسمع الصخب والضحكات المرحة الصافية بصورة أوضح. فتميزت صوت السير آندرو فوكس المفرح وقُهقهات اللّورد آنتوني المجلجلة وتعليقات زوجها بلهجته الرخوة الممطوطة. وحين انتبهت الى وحشة المكان وخلوه من الناس حثت الخطى. وفي تلك اللحظة تميزّت طيف رجل غريب يسرع نحوها. لم ترفع مرغريت بصرها ولم يبد عليها القلق لان استراحة الصياد كانت على مرمى نداء فيها.

توقف الغريب حين رأى مرغريت قادمة نحوه بسرعة، وإذ أوشكت أن تتجاوزه باتجاه الاستراحة قال بهدوء شديد ايها المواطنة سان جيست.

ندّت عن مرغريت صيحة استغراب صغيرة لدى سماعها اسمها الاصلي ينادي قريباً منها. فنظرت الى الغريب واذا بها تطلق هذه المرة صيحة سرور حقيقي وتمد اليه يديها بفرح غامر هاتفة باستغراب:

ـ شوڤلان.

قال الغريب بدماثة وهو يقبل أناملها:

ـ هو نفسه، ايتها المواطنة، في خدمتك.

لم تقل مرغريت شيئاً، بل لبثت لحظة او اثنين تتأمل بسرور واضح الجرم الضئيل الواقف أمامها كان شوڤلان آنذاك أقرب الى الاربعين من العمر ـ شخص ذكي داهية تطلّ من عينيه العميقتين الغائرتين نظرة ثعلبية غريبة. انه نفس الغريب الذي شارك المستر جيليباند في شرب نخب المودة قبل ساعة او ساعتين.

قالت مرغريت، متنهدة في رضا جميل:

ـ شوڤلان.. ياصديقي.. أنا في منتهى السرور لرؤيتك. لاشك أن مرغريت سان جيست المسكينة، في وحدتها وسط البذخ واصدقائها المتمسكين بالرسميات، سعيدة لرؤية وجه يذكرها بالايام الجميلة في باريس، يوم كانت تتربع ملكة على الاوساط الذكية المثقفة في شارع ريشيليو. حتى انها لم تلاحظ البسمة الصغيرة الساخرة التي طافت على شفتي شوڤلان الدقيقتين.

سألته بمرح:

ـ لكن قل لي ـ ما الذي او من الذي جاء بك الى انكلترا؟

استأنفت سيرها نحو المنزل، وسار شوڤلان الى جانبها. وقال:

ـ لابد لي من الرد على هذه المجاملة اللطيفة ايتها السيدة الجميلة. وماذا عنك؟

فقالت، هازة كتفيها:

ـ أوه، أنا؟ أنا اشعر بالسأم ياصديقي. هذا كل ماهنالك.

وصلا الى السقيفة الامامية لاستراحة الصيّاد، لكن مرغريت بدت كارهة لفكرة الدخول. كان هواء المساء عليلاً بعد العاصفة وهاهي تجد صديقاً يحمل اليها أنفاس باريس، ويعرف آرمان جيداً ويستطيع

ان يحكي لهــا عن كل الاصــدقـاء الاذكيـاء الممتعين الـذين تركتهم هناك. فلبثت واقفة تحت السقيفة الجميلة، بينما كانت تأتي عبر نافذة قاعـة المشـرب ذات الانـوار السـاطعـة اصوات الضحك والنداء على «سـالي» وطلب المـزيـد من البيـرة وقـرع كؤوس الانخـاب مختلطـة بضحكـات سيـر پيري بلاكني البلهاء الفاترة ووقف شوڤلان بجانبها، مركـزاً عينيـه الشهلاوين الداهيتين على وجهها الجميل إلذي بدا غاية في العـذوبـة والبـراءة الطفـوليـة في أمسيـة الصيف الانكليزي الرقيقة هذه. قال، وهو يشم قليلاً من السعوط.(*)

ـ أنت تفاجيئنني يامواطنة.

فردت عليه بمرح:

ـ أحقـاً؟ ربـاه! كنت أظن، ياشـوڤلاني الصغير، انك بما لك من فطنة تستطيع ان تحدس ان جواً مؤلفاً من الضباب والفضائل يلائم مرغريت سان جيست أبداً.

فسألها في ذعر متهكم:

ـ واه! لهذه الدرجة من السوء؟

فأجابت:

ـ بالضبط، وأسوأ.

ـ عجيب! كنت أظن أن امـرأة حسنـاء مثلك ستجـد حيـاة الـريف الانكليزي جذابة بشكل خاص.

فتنهدت وقالت:

ـ أجل! هكذا وجدتها.

ثم اضافت باستغراق:

ـ تقضي المـرأة الحسنـاء وقتـا ممتعـاً في انكلتـرا حتمـاً، ولاسيما انها

محرومة من كل الاشياء المفرحة!

ـ هكذا إذن!

فقالت بحرارة:

ـ قد لاتصدقني ياشوقلاني الصغير، لكني كثيراً ما أقضي يوماً كاملاً يوماً بكامله ـ خالياً من اية متعة.

فرد شوقلان متودداً:

ـ لاغرابة في أن تشعر «أذكى امرأة في اوربا» بالسأم.

فارسلت واحدةِ من ضحكاتها الطفولية الناعمة الساحرة وقالت بمكر:

ـ لابد ان اكون في غاية السوء والا ما فرحت هكذا لرؤيتك.

ـ وكل هذا في مدى سنة من علاقة الحب الرومانسية!

ـ أجل!.. في مدى سنة من علاقة حب رومانسية...

تلك هي الصعوبة...

فقال شوقلان في تهكم خفيف:

ـ آه! إذن فالحماقة الرومانسية لم تعش... أسابيع؟

ـ الحماقات الرومانسية لاتبقى أبداً ياشوقلاني الصغير.. تصيبنا مثل الحصبة ثم نشفى منها بسهولة اخذ شوقلان شمة سعوط اخرى. اذ يبدو انه مدمن على تلك العادة الذميمة، التي شاعت في تلك الايام. ولعله وجد في هذه الحركة غطاء يخفي نظرات سريعة ذكية يحاول بها قراءة ما يدور في نفوس من يخاطبهم. كرر القول بنفس الطريقة المتوددة:

ـ لاعجب أن يعاني أنشط ذهن في أوربا من السأم.

ـ كنت آمل أن تقدم لي وصفة لعلاج هذا الداء ياشوقلاني الصغير.

ـ كيف لي أن أنجح حيث أخفق السير پيري بلاكني؟

فقالت بلهجة جافة :

- الا نترك السير پيري خارج الموضوع في الوقت الحاضر ياصديقي العزيز؟

فقال شوڤلان :

- آه! أعذريني ياسيدتي العزيزة، فهذا مالايمكن أن نفعله. واختلس نظرة سريعة الى وجه مرغريت بعينيه الثعلبيتين وأضاف :

- عندي الوصفة المثلى لمعالجة أسوأ أنواع السأم وكنت سأقدمها لك بكل سرور لولا . . .

- لولا ماذا؟

- هناك السير پيري . .

- ما شأنه بذلك؟

- أخشى أن يكون له شأن كبير في الامر. الوصفة التي اقدمها ياسيدتي الجميلة، تسمى باسمها الشعبي : العمل!

- عمل؟

نظر شوڤلان الى مرغريت نظرة فاحصة طويلة . وبدا كأن تلكما العينين الشاحبتين المدققتين تقرآن كل افكارها. كانا بمفردهما وهواء المساء ساكن وكانت همساتهما تضيع في ثنايا الصخب الآتي من قاعة المشرب . فخطا شوڤلان خطوة أو اثنتين من تحت السقيفة وتلفت حوله بحذر، فلما تأكد من عدم وجود أحد قريب عاد الى جوار مرغريت . سألها فجأة بنبرة صوت مختلفة أضفت على وجهه الثعلبي النحيف ملامح حماس غريبة :

- هل لك أن تقدمي خدمة صغيرة لفرنسا، أيتها المواطنة؟

فردت عليه بوقاحة :

ـ ها يارجـل! كيف اصبحت بهـذه الجدية فجأة! . . . لاادري حقاً إن كنت اقدرعلى تقديم خدمة صغيرة لفرنسا . . . على اية حال المسألة تعتمد على نوع الخدمة التي تريدها هي أو تريدها أنت.

قاطعها شوڤلان بسؤال :

ـ هل سمعت بالزهرة القرمزية، ايتها المواطنة سان جيست؟

فردت عليه بضحكة مرحة طويلة :

ـ سمعت بالزهرة القرمزية؟ صدقني يارجل ان لاحديث لنا عن موضوع آخـر . . . ونـرفع قبعاتنا تحية لاسم «الزهرة القرمزية»! خيولنا أسميناها «الزهرة القرمزية» . وفي حفلة ولي العهد، ليلة أمس الاول، أكلنا فطائر باسم «الزهرة القرمزية» . . .

وأضافت بابتهاج :

ـ يالله! . . . قبل يومين أمرت الخياطة بان تعمل لي بذلة زرقاء بأشرطة خضر، وليرحمني الله إن لم تكن اطلقت على البدلة اسم «الزهرة القرمزية».

لم يتحـرك شوڤـلان بينما هي تثرثر مسرورة، ولم يحاول منعها حين ردد هواء المساء الساكن صدى ضحكتها الطفولية الناعمة العذبة.

بل ظل على جديتـه وحمـاسـه ولم يرتفـع صوتـه الـواضـح القاطع الصارم عن مستوى الهمس حين قال :

ـ إذن، مادمت سمعت عن تلك الشخصيـة الغـامضة، يامواطنة فلابد أنـك حدست أوعرفت بان الـرجـل الـذي يتخفى تحت هذا الاسم المستعـار الغـريب هو اعدى اعداء جمهوريتنا . . . فرنسا . . . واعداء المواطنين مثل آرمان سان جيست.

قالت، وهي تنتهد برقة.

ـ لا! أنا معك في ما تقول . . . اعداء فرنسا الحاقدون كثيرون هذه الايام .

ـ لكنــك ، ايتهـا المـواطنـة ، إبنـة فرنسـا ويجب أن تكـوني مستعـدة لمساعدتها في الشدائد .

فردت عليه باعتزاز:

ـ أخي أرمـان كرس حيـاته لفرنسا . أما أنا فلا أستطيع عمل شيء . . . هنا في انكلترا .

فقال يحثها بحماس وقد اكتسب وجهه الثعلبي فجأة ملامح نبيلة مؤثرة :

ـ تستطيعين . هنـا ، في انكلترا ، أنت وحدك تستطيعين مساعدتنا ايتها المـواطنـة . اصغي الي ! . . . لقد ارسلتني حكومة الجمهورية الى هنا ممثـلا لهـا . سأقـدم أوراق اعتمادي للمستربت في لندن غداً . احدى مهمـاتي هنـا أن أكشف سر عصبـة الـزهرة القرمزية هذه التي اصبحت تشكـل تهـديـدا جديـا لفـرنسـا بعـدمـا أخـذت على عاتقهـا مساعدة ارستقــراطيينـا المـلاعين ـ خونـة بلادهم وشعبهم ـ على الهـروب من العقاب العادل الذي يستحقونه . أنت تعرفين يامواطنة مثلما اعرف ان هؤلاء «المهاجرين» الفرنسيين يحاولون بمجرد وصولهم الى هنا ، تعبئة الـرأي العـام ضد الجمهـورية . . . وهم مستعدون لوضع يدهم في يد أي عدو يملك الجرأة على مهاجمة فرنسا . والآن . . . خلال الاشهر القليلة المـاضيـة نجـح عشرات من هؤلاء «المهاجرين» ـ الذين نشك بالبعض منهم وبعضهم أدين فعلا من قبل محكمة السلامة العامة ـ في عبـور القنـال . وكـانت وراء تصميم وتنظيم وتنفيـذ خطط الهروب كلها

جماعة الاوغاد الشباب الانكليز التي يرأسها رجل يبدو داهية بقدر ماهو غامض وقد فشلت كل جهود جواسيس في هويته. ان الاخرين ايدي منفذة، وهو الفكر المدبر الذي يعمل بهدوء، تحت هذا الغطاء الغريب من الغموض، على تحطيم فرنسا. أنا اسعى للضرب على تلك الرأس ولهذا اريد مساعدتك - ومنه يمكنني الوصول الى بقية افراد العصابة. انه واحد من فحول المجتمع الانكليزي الشباب... أنا واثق من ذلك.

وحثها قائلاً:

- اعرفي من هو، ايتها المواطنة... اكتشفي من هو لاجل فرنسا.

أصغت مرغريت الى خطاب شوفلان الحماسي دون أن تتفوه بكلمة بل ولم تتحرك، ولاتكاد تجرؤ على التنفس. لقد سبق أن أخبرته بان هذا البطل الرومانتيكي الغامض هو حديث الاوساط الارستقراطية التي ينتمي اليها. وكان التفكير بذلك الرجل الشجاع يلهب مشاعرها وخيالها، ذلك الرجل الذي لايعرفه احد انقذ حياة المئات من مصير مخيف لايعرف الرحمة. صحيح انها لاتتعاطف مع اولئك الارستقراطيين الفرنسيين المتعجرفين، المتباهين بألقابهم الى حد الوقاحة، أولئك الذين تمثلهم الكونتيسة دو تورناي دو باسريف أصدق تمثيل، لكن مرغريت، رغم انها جمهورية ومتحررة من حيث المبدأ، كرهت الاساليب التي اتبعتها الجمهورية الفتية لتثبيت دعائم حكمها واشمئزت منها. لم تزر باريس منذ شهور، فلم تسمع عن حكم الارهاب وسفك الدماء الذي بلغ ذروته في ايلول الا صدى ضعيف. ولم تعرف شيئاً عن روبسبيير ودانتون ومارا في ردائهم القانوني الدموي الجديد، سفاحي المقصلة الذين لايعرفون الرحمة. عصر الخوف من

هذه الممارسات الرهيبة قلبها، فقد خشيت على أخيها آرمان ـ الجمهوري المعتدل ـ أن يغدو ضحية في يوم من الايام.

حين سمعت للمرة الاولى عن عصبة الشبان الانكليز المتحمسين الذين راحوا، بدافع حبهم للانسان، ينتزعون النساء والاطفال والشيوخ والشباب من براثن الموت، ملأ الافتخار بهم قلبها. وها هي الان تصغي الى شوفلان لكن قلبها يخفق لزعيم العصبة الغامض الجريء الشهم، الذي يغامر بحياته يوميا ويضحي بها عن طيب خاطر في سبيل الانسانية.

كانت دامعة العينين حين انتهى شوفلان من كلامه، فيما كان صدرها يعلو ويهبط بفعل انفاسها المضطربة المتلاحقة. لم تعد تسمع صخب قاعة المشرب او تصغي الى ضحكات زوجها البلهاء بل سرح خيالها بحثا عن البطل الغامض! آه! ذلك هو الرجل الذي كانت ستحب لو وضعه الحظ في طريقها. فكل مافيه يلهب خيالها الرومانتيكي: شخصيته، قوته، شجاعته، أخلاصه لاولئك الذين يعملون تحت قيادته في خدمة نفس القضية النبيلة، وفوق كل ذلك عدم التظاهر هذا الذي توجه بهالة من المجد الرومانسي.

ـ اكتشفيه من أجل فرنسا، ايتها المواطنة!

أخرجها صوت شوفلان القريب من أحلامها. فاختفى البطل الغامض وحلت محله حقيقة أن هناك على بعد عشرين ياردة رجلا يسكر ويضحك الذي اقسمت له يمين الاخلاص والولاء. قالت، وهي تعود الى سابق استخفافها:

ـ لا! يارجل.. أنت تدهشني. أنى لي أن أبحث عنه؟

فهمس شوفلان في أذنها بلهجة ذات مغزى:

ـ في كل مكان ياامواطنة . الليدي بلاكني نجمة مجتمع لندن ، كما قيل لي . فأنت ترين كل شيء وتسمعين كل شيء .

فرفعت مرغريت قامتها وحولت نظرها عنه احتقارا لهذا الجرم الضئيل النحيف الواقف أمامها وردت عليه قائلة :

ـ رويدك ياصاحبي ، رويدك ! يبدو أنك نسيت أن قامة السير بيري بلاكني المديدة وشجرة أنسابه العريقة يقفان بين ليدي بلاكني والعمل الذي تريده مني .

فكرر شوفلان القول بحماس شديد :

ـ من أجل فرنسا ، ايتها المواطنة !

ـ أف يارجل . هذا كلام سخيف . حتى لو عرفت من هو الزهرة القرمزية فلن تقدر على إيذائه ـ وهو الانكليزي ! قال شوفلان ، وهو يضحك ضحكة قصيرة تخدش الاعصاب :

ـ سأغامر. على اية حال نبدأ بارساله الى المقصلة لتهدئة حماسه فاذا حدثت ضجة دبلوماسية يمكننا أن نعتذر للحكومة البريطانية بتواضع واذا دعت الضرورة ندفع تعويضاً لعائلته المتضررة .

فنفرت منه كأنه حشرة ضارة وقالت :

ـ إن ما تقترحه فظيع الرجل شجاع ونبيل كائنا من يكون . . . ولن اقدم ـ تسمعني ؟ . . . لن أقدم اية مساعدة لعمل حقير كهذا . .

ـ أتفضلين الاهانة على يد كل ارستقراطي فرنسي يأتي الى هذا البلد ؟

لقد أحسن شوفلان التسديد بهذا الرمح الصغير فقد شحبت وجنتاها لكنها عضت شفتها السفلى حتى لاتسمح له برؤية ماتركه من تأثير عليها . تمالكت نفسها أخيرا وقالت بلا مبالاة :

ـ يضاف الى ذلك أني استطيع الدفاع عن نفسي . لكني أرفض القيام

بأي عمل لاجلك، أو لاجل فرنسا. عندك وسائل أخرى استعملها ياصديقي.

وأدارت مرغريت بلاكني ظهرها لشوڤلان ومضت الى النزل. قال شوڤلان، وهو يرقب قامتها الممشوقة بثيابها الانيقة في ضوء الرواق:

ـ نلتقي في لندن... آمل! (آمل أن نلتقي في لندن!)

أجابت دون آن تلتفت اليه:

ـ قد نلتقي في لندن. لكن هذه هي كلمتي الاخيرة.

ودفعت باب قاعة المشرب ودخلت متوارية عن ناظريه ولبث هو تحت السقيفة بضع ثوان واخذ شمة سعوط. لقد تلقى مايشبه الصفعة، لكن وجهه الثعلبي الماكر الداهية لم يبد عليه الخجل او خيبة الامل. بل العكس فقد ارتسمت على شفتيه الدقيقتين ابتسامة شبه ساخرة تنطق بالرضا.



الفصل التاسع

أعقبت اليوم المطير ليلة رائقة بسماء صافية تتلألأ فيها النجوم، ليلة أواخر صيف باردة منعشة، ليلة صيف انكليزي بما حملته من رطوبة ورائحة أرض ندية وأوراق شجر متساقطة.

انطلقت المركبة الفخمة التي تجرها أربعة من افضل الجياد الاصيلة في انكلترا. متوجهة الى لندن والسير بيري بلاكني في مقعد الحوذي ممسك بأعنة الخيل بيديه الانثويتين الناعمتين، والى جانبه الليدي بلاكني ملتفة بمعطف من الفراء الثمين. مسيرة خمسين ميل في ليلة صيف صافية! لقد رحبت مرغريت بالفكرة أيّما ترحيب... فالسير بيري سائق عربة بارع وجياده الاربعة الاصيلة كانت قد أرسلت الى دوڤر منذ يومين حيث ارتاحت جيداً بما يجعلها في غاية النشاط

لنضيف متعة الى الرحلة فيما توقفت مرغريت انها ستستمتع ببضع ساعات من الخلوة مع نفسها وبنسيم الليل العليل يداعب خديها وبأفكارها تسرح . . . هناك بعيداً؟ كانت تعرف من تجارب سابقة أن السير بيري لايتكلم الا قليلاً، إن هو تكلم أساساً: فغالباً ماكان يحملها بعربته الجميلة ساعات طويلة من الليل، من موضع الى آخر دون أن ينطق بأكثر من ملاحظة أو إثنتين حول الجو أو حالة الطرق. كان مغرماً بقيادة العربة في الليل، حتى أن مرغريت تعودت على هذه الهواية فتجلس الى جانبه ساعات وساعات ترقب طريقته البارعة الواثقة في السيطرة على أعنّة الخيل. ولكم ساءلت نفسها عما يمكن أن يدور في الرأس الغبي في تلك اللحظات. لكنه لم يقل لها شيئاً عن هذا الموضوع ولم تجرؤ هي قط على سؤاله.

وفي استراحة الصياد كان المستر جيليباند منصرفاً الى اطفاء الانوار. لقد انصرف رواد الحانة كلهم، أما غرف النوم الصغيرة المريحة في الطابق العلوي فقد استقبلت بعض الضيوف المهمين: الكونتيسة دو تارناي وسوزان والفيكونت. وهناك غرفتا نوم اعدتا للسير آندرو فوكس واللورد آنتوني ديوهيرست، فيما لو قرّرا تشريف النزل العريق بقضاء الليلة فيه.

كأن الشابان النبيلان مستريحين، في تلك اللحظة، أمام نار الخشب بقاعة المقهى، التي تركت مشتعلة رغم دفء المساء. سأل اللورد توني صاحب النزل الذي كان مشغولاً برفع الاقداح والاكواب:

ـ قل لي ياجيلي، هل ذهب الجميع للنوم؟

ـ الكل، كما ترى ياسيدي اللورد.

ـ وكل الخدم ذهبوا للنوم؟

فأجاب المستر جيليباند:
ـ كلهم عدا صبي البار. .
واضاف ضاحكاً:
ـ أتوقع أنه سينام سريعاً. . . الوغد
ـ اذن، يمكننا التحدث هنا نصف ساعة دون مضايقة؟
ـ في خدمتك ياسيدي اللورد. سأترك لكم الشموع على الطاولة. غرف النوم جاهزة. . . سأنام أنا في اعلى البيت واذا ناديتم سيادتكم عليَّ بصوت عال يمكنني أن اسمعكم.
ـ حسناً ياجيلي. . . و. . . أقول. . . أطفيء السراج يكفينا ضوء النار. لانريد لفت انظار المارة.
ـ أمرك ياسيدي اللورد فعل المسترجيليباند ماطلب منه ـ
فرفع زجاجة السراج القديم الانيق المعلق في سقف الغرفة ونفخ عليه، واطفأ الشموع. قال السير آندرو:
ـ هات لنا زجاجة خمر ياجيلي.
ـ طيب ياسيدي!
مضى جيليباند ليأتي بزجاجة الخمر. اصبحت الغرفة الآن مظلمة باستثناء دائرة الضوء الاحمر المتراقص الذي ينبعث من نار الخشب المتأججة في الوجاق.
سأل جيليباند بعدما عاد بزجاجة نبيذ وكأسين ووضعها على المائدة:
ـ هل تأمران بشيء آخر ياسادتي؟
فقال اللورد توني:
ـ هذا يكفي تماماً. شكراً ياجيلي!
ـ طابت ليلتك ياسيدي اللورد! طابت ليلتك ياسيدي!ـ

طابت ليلتك ياجيلي!

أصغى الشـابـان لخطـوات المستـر جيليباند الثقيلة تبتعد في الممر وتصعـد السلم، وسـرعان ماتلاشت الاصوات وبدا كل ما في استراحة الصيـاد غارقـاً في النـوم الاّ من الشـابين اللذين راحـا يحتسيان الخمر بصمت بجانب الوجاق.

ساد الصمت، حتى في قاعـة المقهى، الا من تكتكـات السـاعـة الجدارية القديمة وهسهسات احتراق الخشب. أخيراً سأل اللورد آنتوني:

ـ هل كل شيء على مايرام يافوكس

كان السير آندرو غارقاً في أحلامه في تلك اللحظة متطلعاً الى لهيب النار يرى من خلاله وجهاً جميلاً فاتناً ذا عينين شهلاوين واسعتين وثروة من خصـلات شعـر قاتم تحيـط بجبين طفـولي. أجـاب وهـو مايـزال مستغرباً في التفكير:

ـ أجل، على مايرام!

ـ لامتاعب؟

ـ أبداً.

فضحك اللورد آنتوني بمرح وهو يصب لنفسه كأس نبيذ أخرى:

ـ لاأظنني بحـاجـة الى أن أسألـك، كمـا اعتقـد، أن كنت استمتعت بالرحلة هذه المرة

ـ فأجاب السير آندرو باسماً:

ـ لاياصديقي، لاداعي للسؤال. كانت على مايرام.

فقال لورد توني المرح.

ـ إذن فهـذا نخب صحتهـا. إنها بنّية جميلة ولو انها فرنسية وهذا نخب

توددّاتك. عسى أن تزهر وتثمر كثيراً.

وأفرغ الكأس في فمه دفعة واحدة ثم انضم الى صديقه قرب الوجاق.

قال السير آندرو، خارجاً من استغراقه:

ـ حسناً... ستقوم بالرحلة الثانية ياتوني، كما أتوقع.. أنت وها ستنغز بالتأكيد. وآمل أن تجد المهمة ممتعة كما وجدتها أنا اليوم، والصحبة جميلة ساحرة. ماعندك فكرة ياتوني...

قاطعة صديقه بابتهاج:

ـ لا! ماعندي. لكني سأصدق ماتقول

ثم أضاف وقد اكتسى وجهه الضاحك بجدية مفاجئة:

ـ والآن، الآن العمل.

فاقترب الشابان برأسيهما من الواحد الآخر وانخفض صوتهما بصورة لاإرادية الى حد الهمس، رغم انهما كانا بمفردهما. قال السير آندرو:

رأيت الزهرة القرمزية على إنفراد لبضع ثوان في كاليه قبل يوم أو يومين. عبر عائداً الى انكلترا قبل يومين من مجيئنا. لقد رافق الجماعة طول الطريق من باريس متنكراً

ـ لن تصدق أبداً! ـ بهيئة عجوز بائعة خضار، راكباً، عربة نقل مغطاة بداخلها الكونتيسة دوتورناي والآنسة سوزان والڤيكونت مختبئين تحت اكداس الكرنب (اللهانة) واللفت (الشلغم). هم نفسهم لم يعرفوا من تكون السائقة العجوز. حملهم بالعربة ومربهم من خلال صف من الجنود وحشد كبير من الغوغاء الذين يهدرون صارخين «يسقط الارستقراطيون!»

وأضاف الشاب، وعيناه تلمعان حماساً واعجاباً بزعيمه المحبوب:

ـ يالله! هذا الرجل أعجوبة!

أقسم أن جرأته ضرب من المستحيل! هذا مايجعله ينجح أما اللورد آنتوني، الذي لم يكن متمكناً من اللغة مثل صاحبه، فلم يجد سوى عبارة أو اثنتين يعبر بهما عن اعجابه بزعيمه.

قال السير آندرو بهدوء أشد:

ـ يريدكما أنت وها ستنغز أن تلاقياه في كاليه في الثاني من الشهر القادم. دعني أراجع! سيكون الاربعاء القادم.

ـ أجل.

ـ المسألة، طبعاً، تتعلق بالكونت دوتورناي. مهمة خطرة هذه المرة لان تهريب الكونت من قصره، بعد اعتباره «مشكوكاً به» من قبل لجنة السلامة العامة، هو أروع ما تفتقت عنه عبقرية الزهرة القرمزية. ولذا فهو محكوم بالاعدام حالياً. ياله من أنجاز رياضي أن نخرجه من فرنسا، وسيكون الافلات صعباً غاية الصعوبة! لقد ذهب سان جيست لمقابلته فعلاً. لااحد بالطبع يشك بسان جيست حتى الآن.. لكن بعد ذلك... مسألة تهريبهما معاً خارج البلد!

والله انها لمهمة عسيرة، تدوخ حتى دماغ زعيمنا. آمل حتى هذه اللحظة أن تأتيني أوامر بالانضمام الى فريق العمل.

ـ ألديك تعليمات خاصة لي؟

ـ أجل! تعليمات دقيقة أكثر من المعتاد. يبدو أن حكومة الجمهورية أرسلت ممثلاً معتمداً الى انكلترا. رجل يدعى شوڤلان يقال أنه يكره العصبة كرهاً مريراً وهو مصمم على معرفة هوية زعيمنا لكي يختطفه حين يضع قدميه على أرض فرنسا في المرة القادمة. شوڤلان هذا جاء

معه بجيش من الجواسيس والقائد يرى أن نقلّل لقاءاتنا ولا يكلم أحدنا الآخر في الاماكن العامة مهما تكن الاسباب الى أن يتمكن من كشف هؤلاء الجواسيس.

واذا أراد التكلم معنا فإنه سيبلغنا بذلك بالطريقة المناسبة.

كانا الشابان منحنيين على النار بعدما خمد لهيبها ولم يبق سوى جمرات ترسل بصيصاً أحمر خافتاً يرسم نصف دائرة صغيرة من نور ضعيف أمام الوجاق، بينما تغرق بقية جوانب الغرفة في عتمة. اخرج السير آندرو دفتراً صغيراً من جيبه وسحب منه ورقة فتحها وراح الاثنان يقرآن محتوياتها على ضوء النار الخافت. وكانا من الاستغراق بالقراءة وانشغال البال بالمهمة القادمة والحرص على هذه الوثيقة الثمينة التي هي بخط يد زعيمها المحبوب بحيث لم يكونا يريان أو يسمعان شيئاً غيرها. كانا من شدة الانشغال ما جعلهما لايسمعان اي صوت من حولهما.. لاصوت سقوط الرماد من خلال شبكة الموقد ولاتكتكات الساعة الرتيبة ولا ذلك الحفيف الذي لايكاد يسمع لشيء يدب على الارض قريباً منهما فقد برز جسم من تحت احد المقاعد الطويلة (المصطبات) وزحف بحركة إفعوانية ساكنة الى موضع قريب من الشابين وقبع مستتراً بظلام الغرفة كاتماً أنفاسه جامداً في مكانه.

قال السير آندرو:

ـ عليك أن تقرأ هذه التعليمات وتحفظها عن ظهر قلب وتحرق الورقة.

كان على وشك إعادة الدفتر الى جيبه حين أفلتت منه ورقة وسقطت أرضاً فانحنى اللورد آنتوني بسرعة والتقطها. سأل:

ـ ماهذه

أجاب السير آندرو:

ـ لاأدري .

ـ سقطت من جيبك الآن. واضح أنها لم تكن مع الورقة الاخرى بالتأكيد .

ـ غريب؟ ترى متى دخلت جيبي ؟

وأضاف، إذ حدّق بالوريقة :

ـ إنها من الزعيم .

فانحنى الاثنـان على قصـاصـة محاولين فك رموز الكلمات القليلة التي كتبت فيهـا على عجـل، حين سمعـا فجأة بعض ضوضاء صادرة عن الممر. فهتف الاثنان بصورة لاارادية :

ـ ما هذا؟

عبـر اللورد آنتـوني الغـرفـة الى البـاب ففتحه على مصراعيه بحركة سريعة مفاجئة، وفي تلك اللحظة تلقى ضربة صاعقة على جبينه ألقت به بعنف الى داخـل الغـرفـة . في نفس الوقت قفز الشخص القابع في الظلام على السير آندرو الغافل وألقى به أرضاً .

جرى كل هذا في لحظات بحيث لم يجد اللورد آنتوني والسير آندرو الوقت ولا الفرصة لأصلاق نداء استغاثة أو ابداء أقل مقاومة فقد أمسك بهما رجلان وأوثقاهما بسرعة ظهرا الى ظهر وكمما فم كل منهما بلفاف صوفي .

ودخـل رجـل آخـر على وجهه قناع وأغلق الباب وراءه بهدوء ووقف ساكنـاً في انتظـار أن يتم الأخـران عملهما. قال أحد الرجال وهو يلقي نظرة أخيرة على وثاق الشابين :

ـ كل شيء أمين، أيها المواطن .

قال الرجل المقنع الواقف عند الباب :

ـ جيد! الآن فتشوا جيوبهما وأعطوني كل ماتجدونه من أوراق.

تم ماأراد بدقة وهدوء. وعندما أستولى الرجل المقنّع على كل الاوراق، أرهف السمع لحظة أو اثنين ليتأكد أن لاصوت هناك في استراحة الصياد. ولما تأكد بأن هذا الاعتداء الخسيس مرّ دون انتباه فتح الباب ثانية وأشار الى الممر بحركة آمرة فرفع الرجال الاربعة سير آندرو ولورد آنتوني وخرجوا بهما بمثل التسلل والهدوء اللذين نفذوا بهما العملية عن النزل الى طريق دوڤر ومنه الى العتمة التي وراء الطريق.

بينما راح الرجل المقنع، الذي لبث في قاعة المشرب، يتفحص بسرعة الاوراق المسروقة. وغمغم، وهو يرفع القناع فتلتمع عيناه الشهلاوان الثعلبيتان في وهج النار الحمراء:

ـ عمل ليس سيئاً على وجه العموم.. عمل طيب اليوم. فتح رسالة أو اثنتين من دفتر السير آندرو الصغير ولاحظ قصاصة الورق التي أتيح للشابين الوقت لقراءتها. لكن رسالة واحدة خاصة، تحمل توقيع آرمان سان جيست، ملئت قلبه بسرور غريب. غمغم:

ـ آرمان سان جيست خائن بكل الاحوال.

وأضاف قائلاً من بين أسنانه بلهجة عداء وحقد:

ـ والآن، يامرغريت بلاكني الجميلة، أعتقد بأنك ستساعديني في الوصول الى «الزهرة القرمزية».



الفصل العاشر

(في مقصورة الأوبرا)

كانت واحـــدة من الليـــالي الحـافلة في «مســرح كوفنت غاردن» إذ كانت حفلة افتتاح موسم الخريف المسرحي في سنة ١٧٩٢ التاريخية هذه.

وكـــانت الصـــالــة مملوءة، في المقصـورات المطلة على خشبـة المســرح والمقـاعد الخلفية وحتى الشرفات البعيدة حيث يجلس عامة النـاس. لقـد سحرت أوبرا «أورفيوس» للموسيقار «غلوك»(*) المثقفين من الحضـور، فيمـا انشغـل أولئـك، الذين لايهتمون بهذا «الاستيراد الجديد من الموسيقا الالمانية»، بالنظر الى النساء الانيقات اللّابسات من الثياب أجملها ومن المجوهرات أغلاها.

صفق المعجبـون طويـلاً لـ(سيلينـا ستوراتشي) لادائها الرائع لدور

(آريـا) أمـا معبود النساء (بنيامين انكلدون) فقد تلقى مديحاً خاصاً من المقصـورة الملكيـة . وهـاهي الستـارة تهبـط بعـد نهاية الفصل الثاني الرائعة . وها هو الجمهور الذي لبث مسحوراً بما جاءت به الاوركسترا تحت قيادة المايسترو العظيم ، يطلق زفرة رضا وارتياح .

وفي المقصـورات يرى المـرء العـديد من الوجوه المعروفة . فها هو المستـر پت ، اثقلت عليـه همـوم الدولة ، ينشد بعض الراحة في حفلة الليلة المـوسيقيـة . وهـذا ولي العهد ، البدين البشوش بمظهره الخشن المألـوف ، ينتقـل من مقصورة الى اخرى ، منفقاً ربع ساعة في كل مرة مع المقربين من أصدقائه .

في مقصـورة اللورد غرينقيل ، كانت ثمة شخصية غريبة لفتت اليها الانظـار . رجـل قصيـر القـامـة نحيلهـا ذو ملامـح حادة الذكاء وعينين غائـرتين ، راح يصغي الى المـوسيقى ويتفحص الجمهـور بعنـايـة في الـوقت نفســه . يرتدي بدلة قاتمة اللون ولا يغطي شعره القاتم بباروكة . وكان اللورد غرينقيل - وزير الخارجية - يعامله باهتمام يغلب عليه البرود .

وكنت تجد هنا وهناك بين نماذج الجمال الانكليزي المتميزة وجهاً أجنبيـاً أو وجهين يمكن التعـرف عليها بسهولة : الغطرسة الارستقراطية البـاديـة على وجـوه العـديـد من أنصـار الملكيـة «المهاجرين» الذين اضطـرهم اضطهـاد الاطـراف الثـورية في بلادهم الى التماس الملاذ الامين في انكلترا . كانت تلك الوجوه طافحة بالحزن والقلق ولم تكن النسـاء منهم خاصـة ، تولي اي اهتمـام للموسيقى أو الجمهور الرائع . لاشـك أنهن كن يفكـرن بالـزوج والاخ وربما الابن الذي انتهى أخيراً

نهاية مؤلمة أو مايزال خطر الموت يتهدده.

بين هؤلاء كانت الكونتيسة دو تورناي، التي قدمت من فرنسا مؤخراً أكثرهم اجتذاباً للاهتمام: بثوبها الحريري الاسود _ الذي كان سيبدو مثل ملابس الحداد لولا المنديل الحريري الابيض بيدها. كانت الكونتيسة جالسة الى جوار الليدي بورتارلي، التي راحت تحاول عبثاً، بتعليقاتها الذكية ونكاتها الجريئة أن تجلب البسمة الى ثغر الكونتيسة الحزينة. وجلس وراءها الڤيكونت وسوزان صامتين خجلين بعض الشيء وسط هذا الحشد من الغرباء كان في عيني سوزان شوق حزين. فمنذ مجيئها الى هذا المكان المزدحم وهي تتلفت حولها بلهفة، متفحصة كل وجه متطلعة الى كل المقصورات. فالظاهر أن الوجه الوحيد الذي تبحث عنه لم يكن موجوداً ذلك لانها جلست بهدوء وراء والدتها تصغي بحزن للموسيقى غير ناظرة الى الجمهور ثانية.

قالت ليدي بورتارلي، إثر نقرة خفيفة على الباب أطل بعدها رأس وزير الخارجية الذكي:

- آه، لورد غرينڤيل.. جئت في الوقت المناسب ها هي السيدة الكونتيسة دو تورناي في أشد اللهفة لسماع آخر أخبار فرنسا.

تقدم الدبلوماسي البارز وصافح السيدتين وقال بحزن.

- وأسفاه. المذابح مستمرة. باريس غارقة بالدماء فعلاً والمقصلة تجهز على مئة ضحية يومياً.

جلست الكونتيسة شاحبة الوجه دامعة العينين وهي تصغي برعب الى الحديث الموجز والدقيق عما يجري في بلدها الضال قالت بانكليزية ركيكة:

ـ آه ياسيدي، ما أبشع ما اسمع! ـ وزوجي في ذلك البلد الفظيع. كيف لي أن أجلس هنا في المسرح مرتاحة مطمئنة، بينما هو يواجه هذه الاخطار.

فقالت ليدي بورتارلي الصريحة النزيهة:

ـ عجباً، مدام! هل ينجو زوجك إذا جلست في دير؟ ثم فكري بأطفالك... لايجوز تسميم حياتهم بالقلق والحزن وهم بعد صغار.

ابتسمت الكونتيسة من خلال دموعها لانفعال صديقتها. ذلك أن الليدي بورتارلي، التي كانت بصوتها وتصرفاتها أقرب الى سائسي الخيل، تملك قلباً من ذهب وتحمل من مشاعر الود والعطف أرّقها وراء تلك التصرفات الفجّة التي كانت تعجب بعض السيدات في ذلك الوقت وأضاف اللورد غرينفيل:

ـ يضاف الى ذلك ياسيدتي.. ألم تخبريني أمس بأن عصبة «الزهرة القرمزية» أقسمت بشرفها أن تأتي بالسيد الكونت الى هنا سالماً؟

أجابت الكونتيسة:

ـ آه، بلى! وهذا هو أملي الوحيد. أمس رأيت اللورد ها ستنغز وطمأنني ثانية.

ـ إذن فلا داعي بعد للخوف. أنا واثق بأن العصبة إذا ما اقسمت أن تنجز عملا انجزته حقاً.

وزفر الدبلوماسي العجوز وأضاف:

ـ آه! ليتني أصغر سناً بضع سنوات.

فعلقت الليدي بورتارلي بصراحة:

ـ لايارجل! مازلت اصغر سناً من أن تتجاهل الفّزاعة الفرنسية المنصوبة في مقصورتك هذه الليلة.

ـ ليتني أقـدر. . . لكن تذكـري سيـادتـك أن خدمـة بلادنا تقتضي أن نضع أهواءنا جانباً. المسيو شوڤلان هو الممثل المعتمد لحكومته . . .

فردت عليه :

ـ اللعنـة، يارجـل! لاأظنـك تسمّي اولئـك الاوغاد المتعطشين للدماء حكومة. . أليس كذلك؟

فقال الوزير بتحفظ :

ـ أنكلترا لاترى من المستحسن الان أن تقطع علاقاتها الدبلوماسية مع فرنسا ولايمكننا أن نرفض استقبال المندوب الذي ترغب في إيفاده إلينا.

ـ لعنة الله على العلاقات الدبلوماسية ياسيدي اللورد!

ذلك الثعلب الهزيل الماكر الجالس هناك ليس سوى جاسوس أحذرك وستكتشف ذلـك. أنـا على يقين بأنـه لن يهتم بالامور الدبلوماسية قدر اهتمـامـه بمحـاولـة ايـذاء الـلاجئين وبطلنا «الزهرة القرمزية» وأعضاء العصبة الصغيرة الباسلة.

قالت الكونتيسة بلهجة احتقار:

ـ أنـا واثقـة ـ اذا أراد هذا الـ «شـوڤلان» إيذاءنا فسوف يجد في الليدي بلاكني حليفاً مخلصاً.

فهتفت الليدي بورتارلي بحدة :

ـ ليبـاركهـا الله! هل رأيتم مثل هذا الضلال؟ ياسيدي اللورد غرينڤيل، أنت تملك موهبـة التعبيـر. . هلاّ تفضلت وأوضحت للسيدة الكونتيسة انها تتصرف مثل الحمقى؟

ثم تحولت الى الكونتيسة بوجه غاضب صارم وقالت :

ـ مدام، وضعك هنا في انكلترا لايسمح لك بلبس قناع العجرفة الذي يعجبكم كثيراً أنتم الارستقراطيين الفرنسيين. قد تكون الليدي بلاكني متعـاطفـة مع اولئك الاوغاد في فرنسا او لاتكون. قد تكون لها او مالها يد في اعتقال سان سير، أو أياً كان اسم الرجل، لكنها زعيمة المودة في هذا البلد. والسيـر بيـري بلاكني اغنى من عشـرة اغنيـاء دفعـة واحدة وعـلاقتـه وثيقـة حميمـة بالعائلة المالكة واذا حاولت الاساءة الى ليدي بلاكني فلن تؤذيهـا، بل تجعلين من نفسـك أضحـوكـة. أليس كذلك ياسيدي اللورد؟

أمـا كيف نظـر اللورد غرينفيـل الى الموضوع أوماهي الافكار التي دارت في بال الكـونتيسـة دوتورنـاي من جرّاء الحملة العفوية الصادقة التي شنتها ليدي بورتارلي فقد ظل طي الكتمان، لان الستارة ارتفعت في تلك اللحظـة عن الفصـل الثـالث من «أورفيـوس» واتجهت كل جوانب المسرح الى السكوت.

استأذن اللورد غرينفيـل من السيـدات بسـرعـة وانسـل عائـداً الى مقصـورتـه، حيث كان المسيـو شوفـلان جالسـاً طوال فتـرة الاستراحة هذه، ممسكـاً بعلبـة سعـوطـه الازليـة وعينـاه الفاحصتان مثبتتان على المقصـورة المقـابلة التي ضجت بحفيف الثيـاب الحريرية والضحك واجتـذبت اهتمـام الجمهـور حين دخلت اليهـا مرغريت بلاكني برفقة زوجها، تبدو كأنها ربّة الجمال بخصلات شعرها الذهبي الضارب الى الحمـرة المشـدود الى الـوراء فوق عنقهـا الجميل بمشبك أسود كبير. لكن مرغـريت التي كانت دومـاً ترتـدي أحدث الازياء كانت الوحيدة، بين السيدات القادمات الى الحفلة في تلك الليلة، التي تتجاهل هذه

المرة الزي الذي كان مودة السنتين او الثلاث سنوات الاخيرة. فقد جاءت لابسة رداء كلاسيكي الطراز ذا صدر قصير قدّر له ان يصبح مودة العصر في كل الاقطار الاوربية. كانت تفصيلة الرداء تناسب قامتها الرائعة تماماً، وكان الرداء مصنوعاً من قماش طري لماع يبدو كأنه رُقائق من الذهب

وعندما دخلت المقصورة أطلت منها لحظة لترى معارفها بين الحاضرين فحيّاها الكثيرون بانحناءات فيما صدرت عن المقصورة الملكية تحية سريعة جليلة.

راقبها شوقلان بانتباه طوال بداية الفصل الثالث جالسة مأخوذة بالموسيقى.. يدها الصغيرة الفاتنة تعبث بمروحة مرصعة بالجواهر ورأسها ذو الجمال الملكي وحنجرتها وذراعيها وجيدها الذي تحيط به قلادة رائعة من الماس والاحجار الكريمة هي هدية من زوجها المفتون بها الذي كان في تلك اللحظة متمدداً الى جانبها باسترخاء.

كانت مرغريت مغرمة بالموسيقى وقد سحرتها أوبرا أورفيوس هذه الليلة. ان الاستمتاع بالحياة يرتسم على ذلك الوجه الفتي العذب فهو يتجلى في تألق العينين الزرقاوين وفي طيف الابتسامة الذي يحيط بالشفتين. ولم لا وهي لمّا تتجاوز الخامسة والعشرين، في ذروة شبابها، وهي محبوبة الوسط الراقي التي يعبدها معارفها ويحتفون بها ويمتدحون جمالها. وقبل يومين عاد اليخت «حلم اليقظة» من كاليه حاملاً اليها خبر وصول أخيها الذي تقدسه سالماً وأنه يفكر بها وأنه سيحافظ على حياته إكراماً لها.

ما أروع هذه اللحظات، وهي تصغي الى أوتار «غلوك» السحرية، حتى أنها نسيت أسباب قلقها ونسيت احلامها الوردية التي تبخرت،

بل لقد نسيت هذا الابله الطيب الكسول الذي يحاول تعويض بلادته وقصـــوره الـروحي نحـوهـا باغـراقهـا بلذائـذ العيش أمضى معهـا في المقصورة من الوقت ما تتطلبه الرسميات ثم أخلى المكان لولي العهد وأفواج المعجبين الذين لم ينقطعوا عن المجيء الى المقصورة لتقديم فروض الاعجـاب بملكـة الازياء. فقد مضى السير بيري ليتحدث مع الاصدقاء الذين قد ينسجم معهم اكثر من غيرهم. بل ان مرغريت لم تتسـاءل اين ذهب فلم يكن ذلـك يهمهـا كثيـراً فثمة حاشية صغيرة من «نخبـة شبـاب لنـدن» تحيـط بهـا، لم تلبث ان صرفتهم جميعـاً لانها أرادت أن تخلو الى موسيقا «غلوك» بعض الوقت.

أخـرجتهـا من لذة الاستمتـاع بالمـوسيقا نقرة حذرة على الباب فقالت بشيء من نفاد الصبر دون أن تلتفت لترى من المتطفل:

ـ أدخل

فهم شوفـلان، الـذي كان يترقب هذه الفرصة، أنها بمفردها فلم ينتظر كلمـة «ادخـل» الغـاضبـة تلك، بل تسلل بهدوء الى داخل المقصورة ليقف في اللحظة التالية وراء مقعد مرغريت. قال بهدوء.

ـ كلمة معك ايتها المواطنة.

التفتت مرغريت بذعر حقيقي. ثم قالت بضحكة قصيرة مغتصبة:

ـ ويحـك يارجـل! لقـد اخفتني. مجيؤك غيـر مستحب اطلاقاً اريد أن اصغي لـ«غلوك» ولا يعجبني الحديث.

قال بهدوء:

ـ لكن هذه هي فرصتي الوحيدة.

وسحب كرسياً من غير استئذان وجلس وراءها مباشرة ـ بحيث يستطيع أن يهمس في أذنها دون أن يزعج الجمهور او يراه احد في عتمة باطن

المقصورة كرّر القول اذ لم تتكرم عليه برد:
- هذه فرصتي الوحيدة. الليدي بلاكني محاطة بالناس دائماً.. في وسط حاشيتها دائماً حتى ان صديقاً قديماً مثلي لايكاد يجد فرصة.
فقالت بنفاد صبر:
- بالله يارجل! عليك أن تنتظر فرصة اخرى سأذهب الى حفلة اللورد غرينفيل هذه الليلة، بعد الاوبرا. ستذهب أنت ايضا، ربما. سأعطيك خمسة دقائق عندئذ.. فرد عليها بلهجة خانقة:
- ثلاثة دقائق على انفراد في هذه المقصورة تكفيني تماما. واعتقد بأنك من حسن الادراك ما يجعلك تصغين اليَّ ايتها المواطنة سان جيست.

ارتجفت مرغريت رغماً عنها. لم يرفع شوڤلان صوته فوق الهمس ها هو يأخذ شمّة سعوط بهدوء الآن، لكن شيئاً غريباً في سلوكه، في عينيه الثعلبيتين الباهتتين، جعل الدم يتجمد في عروقها، كرؤية خطر مهلك خفي يتكشف على حين غرّة (فجأة).
سألته أخيراً:
- أهذا تهديد ايها المواطن؟
فأجاب بدماثة:
- لاياسيدتي الجميلة. مجرد سهم طائش
وسكت برهة مثل قطّ يتهيأ للوثوب على جرذ مذعور يركض على غير هدى، ويؤجل هجمته ليتلذذ بخوف ضحيته، ثم قال بهدوء:
- أخوك سان جيست في خطر.

لم تختلج عضلة من الوجه الجميل الماثل أمامه بوضع جانبي لان مرغريت بدت منصرفة بانتباهها الى المسرح. لكن عين شوڤلان

الثـاقبة لاحظت جمود النظرة المفاجيء وانطباق الشفتين وتيّبس القوام الجميل الرائع كأنه اصيب بشلل ثم قالت بمرح مصطنع :

- ياالهي ! اذن مادامت هذه واحـدة من مكـائدك الخيالية فالافضل لك ان تعود الى مكانك وتدعني استمتع بالموسيقا وراحت تدق بيدها على بطـانـة المقصـورة بعصبيـة كانت [سيلينـا ستـوراتشي] تغني في تلك اللحظة مقطع «الى اين» لجمهور مسحور تعلقت أنظاره بشفتي المغنية الاولى .

لم يتحـــرك شوڤـلان من مكـانــه ، بل راح يراقب بهـدوء تلك اليـد الصغيـرة العصبيـة التي كانت دليله الـوحيـد على أن سهمه قد أصاب الهدف . قالت فجأة ولكن بنفس لهجة اللامبالاة المصطنعة :

- حسناً؟

فرد عليها بخنوع :

- حسناً، يامواطنة؟

- بشأن اخي؟

- عندي خبر عنه أظنه يهمك ، لكن دعيني أوضح لك أولاً . . ممكن؟

لم يكن السؤال ضرورياً . شعـر بأن كل اعصاب مرغريت توتّرت خوفاً ولهفة لسماع ماسيقول ، بالرغم من رأسها المرفوع كبرياء .

قال :

- قبـل يومين ، ايتهـا المـواطنـة ، طلبت منـك مسـاعـدة . . . تحتاجها فرنسـا ، فكـرت بالاعتماد عليك ، لكنك لم تجبي على طلبي . . . ثم شغلتني واجباتي والتزاماتك الاجتماعية عن اللقاء . . ولو أن أمور كثيرة حدثت .

فقالت باستخفاف :

ـ ادخل في الموضوع ، يامواطن ، ارجوك . الموسيقى حالمة والجمهور سيفقد صبره اذا مضيت في الكلام .

ـ لحظة واحدة ، ايتها المواطنة . يوم تشرفت بلقائك في دوڤر وبعد أقل من نصف ساعة على جوابك لي ، وقعت في يدي بضعة أوراق تكشف عن خطط جديدة لتهريب حفنة من الارستقراطيين الفرنسيين ـ بينهم الخائن دوتورناي ـ وضعها المتطفل الكبير، «الزهرة القرمزية» كذلك أمسكت ببعض خيوط هذه المنظمة الغامضة ، لاكلها . وأريدك ـ لا ! عليك أن تساعديني للامساك بها كلها .

الظاهر أن مرغريت كانت تصغي اليه بانزعاج واضح . فقد هزت كتفيها وقالت بمرح :

ـ عجباً يارجل ! ألم اقل لك إني لاأعبأ بمكائدك ولا بالزهرة القرمزية؟ ثم ألم تكن تتحدث عن أخي؟

ـ قليلاً من الصبر، أرجوك ايتها المواطنة . سيدان : اللورد آنتوني ديوهيرست والسير آندرو فوكس كانا في استراحة الصياد في دوڤر تلك الليلة .

ـ أدري . رأيتهما هناك .

ـ جواسيسي يعرفون أنهما عضوان في تلك العصبة اللعينة . السير آندرو فوكس هو الذي رافق الكونتيسة دوتورناي وطفليها عبر القنال . حين بقي الشابان وحدهما هجم رجالي على قاعة المقهى وطرحا البطلين أرضاً واستولوا على مالديهما من أوراق وجاءا بها اليّ .

أدركت في الحال أن هناك خطراً . أوراق؟ . . هل تصرف آرمان بطيش؟ ملأتها الفكرة رعباً لايوصف . لكنها لن تدع هذا الرجل يرى

خوفها، فضحكت بمرح واستخفاف وقالت ضاحكة:

- والله! إن وقاحتك تفوق التصور. سطو وعنف! وفي انكلترا!.. وفي نزل مزدحم بالناس! لابد أن رجالك قد ألقي القبض عليهم متلبسين!

- ثم ماذا؟ انهم ابناء فرنسا الذين تدربوا على يد خادمك المطيع. لو ألقي القبض عليهم لكانوا ذهبوا الى السجن، اوحتى للمشنقة دون أن تصدر عنهم كلمة احتجاج اوتهور. العملية كانت تستحق المجازفة على أية حال. النزل المزدحم افضل لمثل هذه العمليات الصغيرة مما تظنين، ورجالي متمرسون في هذا المجال.

سألته بلا مبالاة:

- طيب؟ وتلك الاوراق؟

- شيء مؤسف. صحيح أنها اعطتني فكرة عن اسماء معينة.. تحركات معينة بدرجة تكفي. كما اعتقد، لان احبط مؤامراتهم في الوقت الحاضر، لكن حالياً فقط... ولاتعطيني أيّة فكرة عمن يكون الزهرة القرمزية.

قالت بنفس التظاهر باللامبالاة:

- لا! اذن فنحن لازلنا حيث بدأنا، أليس كذلك؟ أعتقد أنك يمكن أن تتركني استمتع بالترتيل الاخير من اللحن وأضافت، متظاهرة بانها تتثاءب:

- ألم تتحدث عن أخي، بالله عليك!

- أنا آت للموضوع الآن، ايتها المواطنة بين الاوراق وجدت رسالة الى السير آندرو فوكس كتبها اخوكِ سان جيست.

- حسناً؟ وماذا بعد؟

- الرسالة لاتبين فقط انه يتعاطف مع اعداء فرنسا، بل ومتعاون مع

عصبة الزهرة القرمزية، ان لم يكن واحداً من اعضائها.

ها هويوجه ضربته اخيراً، ومباشرة كما كانت مرغريت تتوقع. قررت الا تسمح للخوف بالظهور عليها وعقدت العزم على التظاهر بعدم المبالاة، وحتى الاستخفاف. أرادت أن تكون مستعدة للضربة، مستجمعة كل ذكائها ـ ذلك الذكاء الذي يعتبر ألمع ذكاء في أوربا. فلم يبد عليها اي ارتباك حتى الآن. كانت تدري أن شوڤلان قال الحقيقة. فقد كان الرجل أصدق وأقوى حماساً وايماناً بقضيته الموهومة وأشد افتخاراً بأبناء بلده، أولئك الذين صنعوا الثورة، من أن ينحدر الى مستوى الكذب والتلفيق.

إذن فرسالة آرمان ـ آرمان الاحمق المتهور ـ اصبحت بيد شوڤلان. كانت مرغريت متأكدة من صحة ذلك كما لو أنها رأت الرسالة بأم عينيها. وسيستخدم شوڤلان تلك الرسالة لخدمة أغراضه الى أن تنتفي حاجته اليها فيتلفها أويستخدمها ضد آرمان. كانت تعرف كل هذا، لكنها استمرت تضحك مع ذلك بصوت اعلى من ذي قبل. التفت اليه من فوق كتفها وحدقت في وجهه مباشرة وقالت ساخرة.

ـ لا، يارجل! ألم اقل لك انها من نسيج خيالك؟..

آرمان في عصبة الزهرة القرمزية!... آرمان يعمل على انقاذ أولئك الارستقراطيين الفرنسيين الذين يحتقرهم!... والله ان الحكاية تناسب خيالك الى اقصى حد!

قال شوڤلان بنفس الهدوء المتماسك:

ـ دعيني اوضح لك هذه النقطة يامواطنة. أؤكد لك ان آرمان متواطيء بما لاأمل له بالعفو.

خيّم الصمت داخل المقصورة لحظة او اثنين. فقد جلست مرغريت

منتصبة القامة، متصلبة منتبهة، تحاول التفكير، تحاول مواجهة الامر، والتصرف بأفضل طريقة في هذه الحالة.

وكانت المغنية [ستوارتشي] قد فرغت من تأدية المقطع الغنائي وأخذت تنحني للجمهور المتحمس الذي راح يهتف لها. قالت مرغريت بلاكني اخيراً بهدوء وبلهجة خالية من التظاهر بعدم المبالاة الذي ظل يغلب على تصرفها كل تلك الفترة:

ـ شوڤلان، شوڤلان ياصديقي، هل نحاول ان نفهم الواحد الآخر؟ يبدو أن ذكائي علاه الصدأ من جراء هذا الجو الرطب. الآن، قل لي... أنت متشوق لمعرفة شخصية «الزهرة القرمزية»... أليس كذلك؟

ـ أعدى أعداء فرنسا، ايتها المواطنة... ويزداد خطورة لانه يعمل في الظلام.

ـ تقصد يزداد نبلاً... حسن! ـ وأنت الآن ترغمني على التجسس لك مقابل سلامة أخي آرمان... أليس كذلك؟

فاحتج شوڤلان بأدب:

ـ ياللعار! هاتان كلمتان قبيحتان ياسيدتي الجميلة. لاارغام في الامر فالخدمة التي اطلبها باسم فرنسا لايمكن أبداً اطلاق اسم التجسس القبيح عليها.

فقالت بجفاء:

ـ على اية حال... هكذا تسمى هنا. هذا هو قصدك، أليس كذلك.

ـ قصدي أن تنالي أنت العفو عن آرمان سان جيست بتقديم خدمة صغيرة لي.

ـ ماهي؟

فقال بلهفة:

- انتبهي اليّ فقط الليلة، ايتها المواطنة سان جيست. اصغي اليّ: بين الاوراق التي عثر عليها عند السير آندرو فوكس وريقة صغيرة.

وأضاف وهو يخرج قصاصة ورق من دفتر ملاحظاته ويسلمها لها:

- أنظري!

كانت تلك نفس قصاصة الورق التي كان الشابان يدرسانها في اللحظة التي تعرضا فيها لهجوم أتباع شوفلان قبل أربعة ايام. تناولت مرغريت الورقة بحركة ميكانيكية وأحنت رأسها لتقرأها. كانت تحمل سطرين كتبا بخط مشوه مقصود قرأتهما بصوت مسموع:

تذكروا أننا يجب أن لانلتقي الاّ. بمقدار ما تستدعي الضرورة. عندكم كل التعليمات الخاصة بالعملية الثانية اذا أردتم التحدث معي ثانية، سأكون في حفلة (غ)

- مامعنى هذا؟

- انظري اليها ثانية، ايتها المواطنة، وستفهمين.

- يوجد هنا ختم، في الزاوية زهرة حمراء صغيرة..

- أجل.

قال بلهفة:

- الزهرة القرمزية. وحفلة غ تعني حفلة اللورد غرينفيل... سيأتي الى حفلة اللورد غرينفيل الراقصة الليلة.

وخلص شوفلان الى القول بلطف:

- هكذا أفسر الكلمات يامواطنة. لقد حمل رجالي اللورد آنتوني والسير آندرو، بعد تفتيشهما، الى بيت منعزل على طريق دوفر استأجرته انا لهذا الغرض. هناك سجنتهما الى صباح هذا اليوم. لكني، وقد عثرت

على قصاصة الورق هذه قررت أن أتركهما يصلان الى لندن في الوقت المناسب لحضور حفلة اللورد غرينڤيل. تلاحظين، أليس كذلك؟ سيكون لديهما الكثير مما يقولانه لزعيمهما... وهكذا ستتاح لهما الفرصة للتحدث معه هذه الليلة، كما أمرهما أن يفعلا. ولذا وجد هذان الشابان الشجاعان ابواب البيت المنعزل في طريق دوڤر محطمة والاقفال والسلاسل مكسورة أو منزوعة و السجانين هاربين، ووجدا جوادين قويين مسرجين في انتظارهما. أنا لم أرهما بعد، لكننا يمكن أن نستنتج بكل تأكيد انهما لم يتوقفا لحظة في طريقهما الى لندن. وهكذا ترين كم المسألة بسيطة، ايتها المواطنة!

قالت في محاولة اخيرة فاشلة للتظاهر بالاستخفاف:

- تبدو بسيطة، أليس كذلك؟ عندما تريد ذبح دجاجة... تمسك بها... ثم تلوي رقبتها... انما الدجاجة وحدها هي التي لاتجد المسألة بسيطة. أنت الآن تضع السكين على رقبتي وتحتفظ برهينة لتضمن طاعتي... أنت ترى المسألة بسيطة... أنا لاأراها كذلك.

- كلا يامواطنة، أنا اعرض عليك فرصة لانقاذ أخيك من عواقب حماقته هو.

رقّت ملامحها ودمعت عيناها أخيراً وغمغمت كأنها تحدث نفسها:

- الكائن الوحيد الذي أحبني بصدق وأستمرار في هذا العالم... لكن ماذا تريد مني أن افعل ياشوڤلان؟

ومضت تقول بنبرة كلها يأس وبصوت خنقته الدموع:

- في وضعي الحالي... مستحيل!

قال شوڤلان بخشونة واصرار، غير عابىء بهذه النبرة الطفولية اليائسة الحزينة التي يمكن أن تذيب قلباً من صخر:

- لاياموطنة. الليدي بلاكني لااحد يشك بها. وقد انجح بمساعدتك لي، الليلة، في كشف هوية الزهرة القرمزية اخيراً... أنت ذاهبة الى الحفلة بعد قليل... كوني قريبة مني هناك وأصغي... يمكنك أن تخبريني اذا سمعت كلمة عابرة او همسة... لاحظي مع من سيتكلم لورد آنتوني ديوهيرست أو سير آندرو فوكس. أنت الآن فوق الشكوك حتماً. الزهرة القرمزية سيحضر حفلة اللورد غرينفيل الليلة. اعرفي من هو وأنا اعطيك وعداً باسم فرنسا بأن يخرج أخوك سالماً.

بهذا يكون شوفلان قد وضع السكين على رقبتها. وشعرت مرغريت بأنها وقعت في شرك لاأمل لها في الافلات منه. فالرجل يحتفظ برهينة ثمينة ليرغمها على الطاعة، وهي تعلم أن هذا الرجل لايطلق تهديدات فارغة. لاشك أن اسم آرمان قد أدرج الآن في قائمة «المشتبه بهم» أمام لجنة السلامة العامة. وعلى هذا لن يسمح له بمغادرة فرنسا وسيعاقب بقسوة ان هي رفضت اطاعة شوفلان كانت ماتزال تأمل - كأمرأة - في كسب بعض الوقت. فمدت يدها الى هذا الرجل الذي تخشاه وتكرهه الآن وقالت بلهجة ودية:

- إذا وعدت بمساعدتك في هذا الموضوع ياشوفلان فهل تعطيني رسالة سان جيست؟

فأجابها بابتسامة ساخرة:

- إذا قدمت لي خدمة مفيدة هذه الليلة ياامواطنة فسأعطيك الرسالة... غداً.

- أنت لاتثق بي.

- أنا اثق بك ثقة مطلقة ياسيدتي العزيزة، لكن حياة سان جيست مرهونة لبلاده... بيدك أنت سداد الدين وتخليصها.

فقالت ملتمسة:

ـ قد أعجز عن مساعدتك وان كنت راغبة بذلك.

فقال بهدوء:

ـ ستكون العواقب وخيمة حقاً... عليك... وعلى سان جيست ارتجفت مرغريت، إذ شعرت بأنها لايمكن ان تنتظر رحمة من هذا الرجل. فها هو، بماله من جبروت، يمسك بحياة الانسان الذي تحبه بقبضة يده، انها تعرفه جيداً وتعرف انه لايعرف الرحمة اذا فشل في الحصول مايريد.

شعرت بالبرد رغم جودار الاوبرا الخانق. وبدت الانغام العذبة كأنها آتية من بعيد. لفت الشال الثمين حول كتفيها وجلست صامتة تنظر الى مشهد الاوبرا الرائع كأنها في حلم.

انتقلت بأفكارها من المحبوب الذي يواجه الخطر الى الرجل الاخر الذي له عليها هو الآخر حق الثقة والحب. فشعرت بالوحدة والخوف على حياة آرمان. وأحست بالحاجة الى العزاء والنصيحة من احد يعرف كيف يساعد ويطيب الخاطر. لقد احبها السير بيري بلاكني مرة. انه زوجها، فعلام تقف بمفردها أمام هذا الامتحان الرهيب؟ صحيح انه صغير العقل، لكنه كبير العضلات يستطيعان ـ هي العقل وهو الرجولة والشجاعة، أن يغلبا الدبلوماسي الداهية وينقذا الرهينة من براثنة الانتقامية بدون ان يعرضا حياة زعيم عصبة الابطال النبيل للخطر. ان السير بيري يعرف سان جيست جيداً، ويبدو على صلة حميمة به ـ هي متأكدة من أنه يستطيع تقديم مساعدة.

انصرف شوفلان بتفكيره عنها. فقد حدد لها طلبه الرهيب: «إمّا... وإمّا» وترك لها أن تختار! وبدا الآن مستغرقاً بالاستمتاع

بألحان أوبرا «أورفيوس» العذبة، هازاً رأسه الذي يشبه رأس ابن عرس على ايقاع الموسيقى.

خرجت مرغريت من ذهولها على صوت نقرة خفيفة على الباب. كان ذلك هو السير بيري بلاكني عائداً بقامته الطويلة وحركاته الكسولة وملامحه الطيبة وابتسامته البلهاء شبه الخجولة التي أثارت اعصابها بشدة في تلك اللحظة.

قال بلهجة رخوة ممطوطة لاتطاق:

- أقول... العربة في الخارج، عزيزتي. أتصّور انك تريدين الذهاب الى تلك الحفلة اللعينة... ها... معذرة مسيو شوڤلان - لم الاحظك...

ومدّ أصبعين ابيضين رقيقين الى شوڤلان الذي كان قد نهض حين دخل السير بيري المقصورة. وصدرت عن أماكن مختلفة من الدار احتجاجات غاضبة: «إش... ش... ش!» فعلق السير بيري بابتسامة ودودة:

- اللعنة على هذه الوقاحة.

زفرت مرغريت باستياء. لقد تبدد أملها الاخير فجأة على مايبدو. لفّت معطفها الواسع حولها، وقالت وهي تأخذ بذراع زوجها دون أن تنظر اليه:

- أنا مستعدة للذهاب.

عند باب المقصورة التفتت ونظرت الى شوڤلان نظرة مباشرة وكان هذا واقفاً، واضعاً قبعته المثلثة تحت إبطه، مستعداً للحاق بالزوجين المتنافرين، وعلى شفتيه الدقيقتين ابتسامة غريبة. قالت بلهجة لطيفة:

ـ مجرّد «الى اللقاء» ياشوڤلان. سنلتقي في حفلة اللورد غرينڤيل بعد قليل.

وقرأ الفرنسي الداهية في عينيها شيئاً جعلة يشعر بارتياح عميق، لانه أخذ شمة صغيرة من السعوط وهو يبتسم السخرية ونفض عن ربطة عنقه الحريرية الانيقة ما يكون قد علق بها من السعوط ثم فرك النحيلتين العظمتين بارتياح.



الفصل الحادي عشر

(حفلة اللورد غرينفيل)

كانت الحفلة الراقصة التاريخية التي أقامها وزير الخارجية ـ اللورد غرينفيل ـ أروع مناسبة في تلك السنة. فرغم ابتداء موسم الخريف نجد كل واحد يعمل جاهداً على الوصول الى لندن في الوقت المناسب لحضور الحفلة والتألق فيها بقدر المستطاع.

كان صاحب السمو الملكي ولي العهد قد وعد بالمجيء الى الحفلة من دار الاوبرا مباشرة. وكان اللورد غرينفيل نفسه قد شاهد الفصلين الأولّين من أوبرا «اورفيوس» قبل أن يغادر ليكون في استقبال ضيوفه. في الساعة العاشرة ـ وهو وقت متأخر جداً في تلك الايام ـ ازدحمت أبواب قاعات وزارة الخارجية، المزينة بأغصان الشجر والزهور الساحرة، بجموع المدعوّين. وأفردت احدى القاعات للرقص

وكـــانت أنغـام آلات وتـريـة خفيفـة عذبـة ترافق الاحــاديث البهيجـة والضحك المرح الذي يصدر عن الضيوف.

في الغـرفـة الصغيرة التي تواجه اعلى السلّم الرئيسي وقف صاحب الدعوة الكبير يستقبل ضيوفه: رجال بارزون، نساء جميلات نبلاء من كل بلد أوربي، مروا عليــه وتبــادلــوا معــه الانحنــاءات البــارعـة والمجاملات التي كانت من شروط المجتمعات الارستقراطية في تلك الايـام، ليتوزعوا بعدئذ على قاعة الرقص والاستقبال وقاعات المقامرة الخلفية وغيرها.

وعلى مقـربـة من اللورد غرينفيـل وقف شوفـلان متكئـاً الى احدى موائد الزينة الجدارية ببدلته السوداء الانيقة، يرقب الحاضرين بهدوء. فلاحـظ أن السيـر بيـري والليـدي بلاكني لم يصـلا بعد وراحت عيناه الباهتتان الحاذقتان تتجهان صوب الباب كلما وصل قادم جديد.

وقف معـزولا بعض الشيء. ذلـك أن مبعوث حكومة فرنسا الثورية لم يكن يتمتـع بشعبيـة (لم يكن محبـوباً) في انكلترا، في وقت بدأت الاخبار عن مذابح ايلول البشعة وعن سيادة الارهاب والفوضى تتسرب عبر القنال الانكليزي.

استقبله الـزمـلاء الانكليـز بما يليق بمركزه الدبلوماسي فصافحه المستـــر پت وجـــامله اللورد غرينفيـــل اكثـر من مرّة. أمّـا خارج تلك الـرسميـات فقد تجاهلته الاوساط الراقية اللندنية تماماً. فأعرضت عنه النساء صراحة ورفض الرجال، من غير الرسميين، مصافحته.

لكن شوفـلان لم يكن بالـرجـل الذي يعير اهتماماً لهذه التجاهلات التي اعتبرها مجرد حوادث صغيرة في حياته الدبلوماسية. كان متحمساً لمباديء قضيته الثورية، يحتقر كل أشكال التمايز الاجتماعي ويحمل

حباً دافقاً لبلاده. هذه المشاعر الثلاثة جعلته يتجاوز الكثير من الاساءات التي تعرض لها في انكلترا العتيقة الملكية الغارقة في الضباب هذه.

وفوق هذا فإن الشوفلان ما يشغل باله. انه يعتقد جازماً بأن الارستقراطي الفرنسي اعدى اعداء فرنسا، ويتمنى أن يراهم يعدمون جميعاً. فهو احد أوائل الذين مهدوا لـ«عهد الارهاب» باطلاق هذا التصريح العنيف التاريخي: «ليت للارستقراطيين رأساً واحداً مشتركاً، لكنا قطعناه بضربة واحدة من سكين المقصلة».

ولذا فهو يرى في كل ارستقراطي نجح في الهرب من فرنسا طعاماً شرعياً للمقصلة أفلت منها بالخديعة. لاشك أن اولئك «المهاجرين» الملكيين، الذي ينجحون في عبور الحدود، يفعلون كل ما في وسعهم لاثارة السخط الاجنبي على فرنسا. فقد بدأت المؤامرات تحاك في انكلترا وبلجيكا وهولندا لتحريض دولة كبرى وارسال جيوش للزحف على باريس الثورية بغية تحرير الملك لويس وشنق الزعماء الدمويين لتلك الجمهورية الممسوخة.

فلا عجب، اذن، ان تملأ شخصية «الزهرة القرمزية» الغامضة الرومانتيكية قلب شوفلان بحقد مرير. هذا الرجل، وحفنة الاوغاد الشباب الذين تحت قيادته، المزودون بالاموال الطائلة والمسلحون بقدر غير قليل من الجرأة والمكر، نجحوا في انقاذ مئات الارستقراطيين من فرنسا. فتسعة اعشار النبلاء «المهاجرين» الذين استقبلهم البلاط الانكليزي يدينون بنجاتهم الى ذلك الرجل وعصبته.

لقد وعد شوفلان زملاءه في باريس بأن يكشف هوية الانكليزي المتطفل ويستدرجه الى فرنسا ثم... وسحب شوفلان نفساً عميقا

يدل على الرضا والارتياح لمجرد فكرة رؤية ذلك الرأس الغامض يسقط تحت سكين المقصلة بنفس السهولة التي يسقط بها اي رأس.

فجأة دبّ نشاط غير اعتيادي على السلم الانيق وتوقفت كل الاحاديث لحظة اعلن كبير الحجّاب بصوته الجهوري:

- صاحب السمو الملكي ولي العهد وحاشيته السير بيري بلاكني والليدي بلاكني.

فأسرع اللورد غرينفيل الى الباب لاستقبال ضيفه السامي.

دخل أمير و يلز مرتدياً بدلة رسمية رائعة قرنفلية اللون مطرزة بالذهب متأبطاً ذراع مرغريت بلاكني، فيما مشى الى يساره السير بيري في بدلة ساطعة من الحرير الاصفر الباهت مفصلة على الطراز «المطرّز» الفخم، وشعره الاشقر على طبيعته وقبعته المثلثة المريشة تحت إبطه.

قال اللورد غرينفيل، بعد عبارات الترحيب الرسمية القليلة عادة مخاطباً ضيفه الملكي:

- هل يأذن لي صاحب السمو بتقديم المسيو شوفلان، المندوب المعتمد للحكومة الفرنسية؟

كان شوفلان قد تقدم، حال دخول الامير، متوقعاً هذا التقديم فانحنى انحناءة شديدة رد عليها الامير بايماءة صغيرة من رأسه. قال سموه الملكي ببرود:

- مسيو، سنحاول نسيان الحكومة التي ارسلتك وننظر اليك على انك ضيفنا وحسب - سيد قادم من فرنسا. على هذا الاعتبار نرحب بك ياسيدي.

فرد شوفلان بانحناءة عميقة اخرى: «مولاي» ثم تلاها بانحناءة رسمية امام مرغريت قائلاً: «سيدتي». فقالت بمرح لامبالية مادة يدها الصغيرة

؛نجميلة له :
ـ آه! شوڤلان الصغير! أنا وهذا السيد اصدقاء قدامى ياصاحب السمو.
فقال الامير بلطف عظيم هذه المرة :
ـ آه، إذن فأهلاً بك مرتين ياسيدي.
وهنا تدخل اللورد غرنيڤيل :
ـ هناك آخرون ألتمس الاذن بتقديمهم الى سموكم فسأله الامير:
آه، من هم؟
ـ السيدة الكونتيسة دو تورناي دوباسريڤ وعائلتها، الذين قدموا من فرنسا مؤخرا.
ـ من كل بد! ـ إذن فهم من الناس المحظوظين جداً!
فتحول اللورد غرينڤيل ليبحث عن الكونتيسة التي جلست في اقصى الغرفة.

همس سموه الملكي في اذن مرغريت لمّا وقع نظره على السيدة العجوز الجالسة متصلبة كالتمثال :
ـ ليباركني الرب! ليباركني الرب! تبدو شديدة التقوى والانقباض.
فردت مرغريت باسمة :
ـ صدقني ياصاحب السمو أن التقوى مثل الزهرة الفواحة كلما سحقت أوراقها زاد عبيرها.
فزفر الامير قائلاً :
ـ الفضيلة، وأسفاه! لاتناسب جنسكن الساحر ياسيدتي. قال اللورد غرينڤيل مقدماً السيدة.
ـ السيدة الكونتيسة دو تورناي دو باسريڤ.

ـ سرّنـا لقـاؤك ياسيـدتي . جلالـة والـدي ، كما تعلمين ، يسره أبداً أن يرحب بمواطنيك الذين تخلت عنهم فرنسا .

أجابت الكونتيسة بكبرياء جميل .

ـ سموكم الملكي في غاية الكرم .

ثم أشارت الى ابنتها التي وقفت الى جانبها بخضوع وقالت :

ـ ابنتي سوزان يامولاي .

فقال الامير :

ـ آه ، رائـع !ـ رائـع ! والآن اسمحي لي ياكـونتيسة بأن اقدم لك الليدي بلاكني ، التي تشـرفنـا بصداقتها . سيكون لديكما ، أنت وهي ، الكثير ممـا يقـال . نرحب ضعف التـرحيب بكـل واحـد من مواطني الليـدي بلاكني إكراماً لها . . . أصدقاؤها أصدقاؤنا . . . أعداؤها اعداء انكلترا .

التمعت عينـا مرغـريت ابتهـاجـاً بهـذا التقدير العظيم من صديقها الجليل أما الكونتيسة ، التي أهانتها بوقاحة قبل بضعة ايام ، فقد تلقت الآن درسـاً على مرأى ومسمـع من الجميع جعل قلب مرغريت يمتلىء طربـاً . لكن الكـونتيسـة وهي التي تعتبـر احترام العائلة المالكة لايقل قدسيـة عن الـدين ، كانت من حسن المعـرفـة بآداب البـلاط ماجعلها تكتم اي شعور بالانزعاج فتبادلت السيدتان المجاملات بافراط . قالت مرغريت باحتشام ، وان كانت عيناها الزرقاوان تنطقان بالمشاكسة :

ـ سمـوه الملكي كريم دومـاً ياسيـدتي . لكن لاحـاجـة هنـا لوسـاطتـه الكـريمـة . . . فاستقبـالـك الـودي لي قبل بضعة ايام مازال مقيماً في ذاكرتي (لم يبارح ذاكرتي) فردت عليها الكونتيسة ببرود :

ـ نحن ، المنفيين المسـاكين ، ياسيــدتي نعبـر عن امتنـاننـا لانكلتـرا

بالامتثال لرغبات مولاي.

فقال مرغريت بمجاملة رسمية اخرى مع انحناءة صغيرة من الرأس:

ـ مدام!

فردت الكونتيسة المجاملة بمثلها بكبرياء:

ـ مدام.

وكان الامير في تلك الآونة يتلطف بالحديث مع الفيكونت الشاب قائلاً:

ـ أنا سعيد بمعرفتك، ايها السيد الفيكونت. اعرف والدك جيداً مذ كان سفيراً في لندن.

فأجاب الفيكونت:

ـ آه، يامولاي!، كنت طفلاً آنذاك... والآن أنا مدين بشرف هذه المقابلة لمنقذنا وحامينا «الزهرة القرمزية» فبادر الامير يقول بسرعة وقلق:

ـ إششششش!

فقد لاحظ ان شوفلان كان واقفاً غير بعيد طوال هذا اللقاء يراقب مرغريت والكونتيسة وعلى شفتيه الدقيقتين ابتسامة ساخرة أسرع شوفلان يقول كمن يتحدى الامير تحدياً مباشراً:

ـ لا يامولاي. أتوسل اليك أن لاتحرم هذا السيد من التعبير عن إمتنانه. اسم تلك الزهرة الحمراء الحلوة أعرفه أنا... وتعرفه فرنسا.

نظر اليه الامير بامعان لحظة او اثنتين وقال:

ـ إذن فأنت ياسيدي تعرف عن بطلنا القومي اكثر مما نعرف نحن... لعلك تعرف من هو...

ثم التفت الى الحاضرين في القاعة من حوله وأضاف:

ـ انظـر! عيـون السيدات شاخصة اليك . . . قد تنال شعبية في اوساط الجنس الناعم اذا اشبعت فضولهن.
أجاب شوڤلان بلهجة ذات مغزى:
ـ آه يامولاي . . . الشائعات في فرنسا تقول ان سموكم تستطيعون ـ اذا أردتم ـ أن تقدموا ادق فكرة عن هذه الزهرة البرية الغامضة!
قال الامير:
ـ لا يـارجـل. فمي مختـوم بالشمـع! واعضـاء العصبـة يحـرصون كل الحرص على كتمان سر زعيمهم . . . فعلى عباده اذن ان يرضوا بعبادة طيف.
ثم أضاف بجلال وسحر مدهشين:
ـ هنـا في انكلتـرا، ياسيـدي، ما أن نذكـر اسم «الزهرة القرمزية» حتى تلتهب الـوجـوه حمـاسـاً. لم يره احـد سوى اعوانه المخلصين. نحن لا نـدري ان كان طويـلاً أم قصيـراً، أبيض ام اسمـر، جميـلاً أم مشوه الخلقة، لكننا ندري أنه اشجع سيد في العالم كله ونحن نشعر بشيء من الفخر ياسيدي حين نتذكر انه سيد انكليزي.
نظـر شوڤـلان بسـرعـة وحدة الى مرغريت، لكن وجهها ظل جامداً ونظرت اليه نظرة تحد خالية من الخوف وقالت، وهي ماتزال تنظر بتحد الى وجه الفرنسي الخانع الذي يشبه وجه أبي الهول في جموده:
ـ آه! سيد شوڤلان . . . حبذا لو ان صاحب السمو أضاف أننا السيدات نعتبره بطلاً أسطورياً . . . نحن نعبده . . نحن نحمل شارته . . نرتجف خوفاً عليه حين يتعرض للخطر ونبتهج معه في ساعة الفوز.
لم يفعـل شوڤـلان اكثـر من الانحنـاء بخضوع للامير ومرغريت لقد شعـر بأن ما قالـه الاثنـان مقصـود ـ كل بمـا يبغي وبطـريقته الخاصة ـ

الاحتقـار او التحـدي . انـه يحتقـر الامير الكسول المحب للمتعة . اما المــرأة الجميلة التي وضعت على راسهـا تاجـاً من زهـور صغيـرة من الياقوت والماس فهي في قبضة يده . وعلى هذا فضل السكوت وانتظار الاحداث .

وفجأة انطلقت ضحكـة بلهـاء مرحـة طويلة لتكسر الصمت الذي خيم على الجميع ثم قال السير بيري العملا ق الجميل بلهجته الممطوطة البطيئة :

ـ ونحن الازواج المساكين علينا أن نقف متفرجين . . . بينما هن يعبدن طيفاً ملعوناً .

ضحـك الجميـع ـ وكـان الاميـر اعـلاهم ضحكاً . وخف جو التوتر الـذي ساد قبـل قليل ، وما هي الا لحظات حتى عاد الجميع يتحدثون ويضحكون بابتهاج وتفرقوا جماعات جماعات في القاعات الاخرى .



الفصل الثاني عشر

(قصاصة الورق)

كانت مرغريت تتعذب بشدة. فرغم ضحكها وأحاديثها، ورغم ماتلاقيه من إعجاب واهتمام واحتفاء اكثر من اية أمرأة اخرى، كانت تشعر كمن حكم عليه بالاعدام يعيش يومه الاخير على الارض.

كانت اعصابها مشدودة حد الالم، زادتها توتراً مئة مرة الساعة القصيرة التي قضتها برفقة زوجها بين الاوبرا والحفلة. ذلك أن بارق الامل - بأن تجد في هذا الشخص الطيب الخامل صديقاً غالياً وناصحاً

تلاشى بأسرع مما جاء لحظة انسحب شوفلان وبقيا وحدهما. فقد تملكهانفس شعور الازدراء الخفيف الذي يشعر به المرء تجاه حيوان او خادم مخلص، الامر جعلها تبتسم وتدير وجهها عن الرجل الذي

يفتـرض فيـه ان يكـون سنداً معنوياً لها في الازمة الحادة التي تمر بها، الـذي يفتـرض فيـه ان يكـون النـاصـح الهادىء ساعة تتقاذفها مشاعر نسوية مختلفة يميناً وشمالاً . . . حبها لاخيها الذي يواجه اخطاراً مميتة بعيـداً عنهـا من جهـة والـرعب من بشاعة الخدمة التي يريدها شوقلان منها مقابل حياة أخيها.

ها هو سندها المعنوي الناصح الامين، يقف بين حشد من الشبان المعجبين فارغي الرؤوس الذين راحوا يتناقلون من فم الى فم باعجاب شديد المقطع الشعري المختل المضحك الذي ألفه لهم قبل لحظات.

صارت كلمـات الهـراء السخيف تلك تصفعهـا اينمـا اتجهت كأن الناس مالديهم كلام آخر. حتى الامير سألها ضاحكاً ان كانت تعجبها جهـود زوجها الشعرية الاخيرة. وصرح السير بيري لجمهور المعجبين من حوله قائلاً:

ـ كلّها ألّفتها أثناء شد الربطة.

قصاصة الورق

نبحث عنـه (اونلمســه) هنـا، نبحث عنه هناك أولئك الفرنجة يبحثون عنـه في كل مكـان هل هوفي الجنـة؟ ـ هل هوفي النـار؟ ذلك الماكر اللعين «الزهرة القرمزية»:

انطلقت درر السير بيري هذه في جميع القاعات. وكان الامير مسحوراً بها، بل وأقسم بأن الحياة من غير بيري بلاكني صحراء قاحلة ثم اخذه من ذراعه ومضى به الى قاعة القمار حيث انخرط معه في لعبة نرد طويلة.

كان السير بيري، الذي يبدو اهتمامه في اغلب الحفلات منصباً على موائد القمار، يترك زوجته عادة تتغازل وترقص.. تتسلى أو تقتل نفسها ضجراً بقدر ماتريد. وفي هذه الليلة، وبعدما ألقى «رائعته» الشعرية، ترك مرغريت محاطة بجمهور من المعجبين من كل الا عمار. الذين يريدون ويسعون الى جعلها تنسى أن هناك في واحدة من قاعات الحفلة الرحبة مخلوقاً طويل القامة كسولاً بلغ من الحماقة ماجعله يظن أن اذكى امرأة في أوربا يمكن ان تلتزم بالروابط الزوجية الانكليزية المملة.

زادت الاعصاب المشدودة وحالة التوتر والهياج مرغريت الجميلة حسناً على حسن. وكانت اذا مرت يحيط بها رهط من المعجبين، من مختلف الاعمار والجنسيات، تثير المزيد من عبارات الاستحسان ونظرات الاعجاب.

راحت تتجنب التفكير. وكانت بحكم تربيتها البوهيمية المبكرة تؤمن بالقضاء والقدر، وتشعر بأن الاحداث تكيّف نفسها، لكن امكانية توجيهها ليست بيدها. فقد عرفت أنها لايمكن أن تنتظر من شوفلان رحمة. لقد وضع ثمناً لرأس آرمان وترك لها أن تدفع الثمن أو لاتدفع.

بعد فترة رأت السير آندرو فوكس واللورد آنتوني ديوهيرست اللذين وصلا قبل لحظات على مايبدو. ولاحظت أن السير آندرو مضى فوراً الى سوزان دو تورناي الصغيرة وانهما تمكنا من الانفراد تحت طاق

صغير يفضي الى احدى النوافذ حيث استغرقا في حديث طويل حميم وشيق لكليهما.

كان الارهاق والقلق باديين على الرجلين، لكنهما مع ذلك كانا في منتهى الاناقة ولم يبد على تصرفهما اي اثر للكارثة التي يشعران بأنها توشك أن تحل عليهما وعلى زعيمهما.

استنتجت مرغريت بأن عصبة الزهرة القرمزية لاتنوي قط التخلي عن قضيتها، من خلال حديث سوزان التي تحدثت صراحة عن توكيدات تلقتها هي ووالدتها من العصبة بأنها ستعمل على إنقاذ الكونت دو تورناي من فرنسا خلال الايام القليلة القادمة. راحت تسائل نفسها، وهي تنظر الى هذا الحشد الانيق الزاهي من الشخصيات داخل القاعات المتلألئة، من ياترى من هؤلاء هو الزهرة القرمزية الغامض، الذي يمسك بيديه خيوط مثل هذه العمليات الجريئة ومصائر ناس ذوي شأن!

تملكها فضول شديد لمعرفته. صحيح انها ظلت طيلة شهور تسمع عنه الكثير وسلمت مثل جميع الناس بأنه مجهول، الا انها اشتاقت الان لان تعرفه، لالغاية شخصية ولا لامر يتعلق باخيها آرمان وآه! ولا علاقة لموضوع شوڤلان - بل لرغبة منها هي ولما تكنّه دائما من اعجاب شديد بشجاعته وسعة حيلته.

إنه موجود في الحفلة طبعاً، في مكان ما، مادام السير آندرو فوكس واللورد آنتوني ديوهيرست قد جاءا، منتظرين طبعاً أن يقابلا زعيمهما - وربما يتلقيا منه «أوامر» جديدة.

تطلعت مرغريت الى الجميع، الى الوجوه النورمانية الارستقراطية المتكبرة والوجوه السكسونية الشقراء الاقرب الى الشكل المربع

والسلقيـة الـرقيقـة المـرحة، ترى أيّ واحد من هذه الوجوه يخفي القوة والحيـويـة وسعـة الحيلة التي جعلتـه يستطيع ان يفرض إرادته وزعامته على عدد من النبلاء الانكليز الكبار الذين تقول الشائعات ان سمو ولي العهد نفسه واحد منهم؟

أهـو السيـر آنـدرو فوكس؟ بالتأكيد لا! واحد له مثل عينيه الزرقاوين الحانيتين (او الرقيقتين) اللتان تنظران بمودة وشوق الى سوزان الصغيرة فتأتي والـدتهـا الشديدة لتنتزعها من حديثها الودي اللطيف معه. راقبته مرغـريت، من بعيـد فرأتـه يتنّهـد ويتلفت ويبدو واقفاً وحيداً حائراً بعدما توارى بين المـدعـوين طيف سوزان الصغيـر الجميل وراقبته يتجه الى باب يفضي الى غرفة داخلية خلفية فتوقف هناك واتكأ الى اطار الباب واستمر ينظر من حوله قلقاً ولهفة.

تسللت مرغـريت مبتعـدة عن فارسها الشهم وشقت صفوف الجمع الانيق لتدنو من الباب التي اتكأ السير آندرو اليها. لم ارادت الاقتراب منه؟ لاتدري بالضبط: ربما كانت مدفوعة بقوة القضاء والقدر الجبارة التي تتحكم بمصائر البشر في اغلب الاحيان.

توقفت فجأة: شعـرت كأن قلبهـا يكف عن الخفقـان. وأومض في عينيها الواسعتين بريق الاثارة وهي تتجه بنظرها الى الباب ثم لم تلبث أن حولت نظرها عنها. كان السير آندرو فوكس مايزال في وقفته الحائرة عنـد البـاب، لكن مرغـريت لاحظت اللورد هاستنغـز ـ أحـد الفحول الشابة وصديق زوجها وأحد حاشية ولي العهد ـ وهو يمرق بجوار السير آندرو ويدس في يده شيئاً.

آه! ومضـة برق. . توقفت مرغـريت لحظة. . . ثم استأنفت سيرها عبر الغرفة متظاهرة بعدم المبالاة ـ انما اسرعت هذه المرة صوب الباب

الذي اختفى السير آندرو منه .

كل هذا ـ منذ رأت مرغريت السير آندرو متكئاً على الباب حتى لحاقها به في الغرفة الداخلية الصغيرة ـ لم يستغرق دقيقة . فالقدر سريع حين يوجه ضربة .

في هذه اللحظة اختفت ليدي بلاكني من الوجود . فالمرأة الواقفة هناك هي مرغريت سان جيست : نعم مرغريت سان جيست التي عاشت طفولتها وسني الصبا الاولى في رعاية اخيها آرمان . لقد نسيت كل شيء الآن ـ منزلها ، كرامتها ، اعجابها الخفي باولئك الابطال ـ كل شيء . . . الا الخطر الذي يتهدد حياة آرمان . . . وأن هناك على بعد عشرين خطوة منها ، في الغرفة الداخلية الخالية . . . في يد السير آندرو فوكس ، قد تجد التعويذة التي يمكن أن تنقذ حياة شقيقها .

لم يمض نصف دقيقة بين دس اللورد هاستنغز «الشيء» في يد السير آندرو وبين وصولها الى الغرفة كان السير آندرو واقفاً ، وظهره الى الباب ، بجانب طاولة عليها شمعدان فضي عملاق . وكانت بيده قصاصة ورق مشغول بدراسة محتوياتها .

تسللت مرغريت خلفه مباشرة ، كاتمة أنفاسها ماشية بهدوء وحذر حتى أنه لم يسمع حفيف ثوبها على البساط السميك . . وما أن التفت اليها حتى توجعت ووضعت يدها على جبينها وغمغمت باعياء :

ـ الحرارة هناك لاتطاق . . كاد أن يغمى علي . . . آه! . . . وترنحت كأنها توشك على السقوط ، الا أن السير آندرو ، الذي استطاع الخروج من ذهول المفاجئة وضم على قصاصة الورق المسحوقة بكفه ، أسرع في الوقت المناسب لاسنادها . سألها بقلق شديد :

ـ أنت مريضة ، ليدي بلاكني؟ . . . اسمحي لي . .

لكنها قاطعته بسرعة:

ـ لا، لا، لاشيء... كرسي... بسرعة.

فالقت بنفسها على الكرسي بجوار الطاولة وألقت برأسها الى الوراء واغمضت عينيها. وغمغمت بصوت ضعيف ايضا:

ـ لاتقلق ياسير آندرو.. ثق بأني أحسن حالاً الآن... الدوار انتهى...

في مثل هذه اللحظات تبرز في داخل الانسان بلا شك ـ كما يؤكد علماء النفس ايضاً ـ حاسة لاعلاقة لها بالحواس الخمس المعروفة اطلاقاً: فنحن لانرى، ونحن لانسمع ولانلمس ولكننا نشعر بالحواس الثلاثة هذه تعمل دفعة واحدة وفي الحال. جلست مرغريت مغمضة العينين، لكنها رأت السير آندرو يقف وراءها مباشرة وعن يمينها الطاولة والشمعدان ذا الشعب الخمسة. ولم تكن في بالها صورة سوى وجه آرمان، آرمان الذي تتعرض حياته لاشد الاخطار، ويبدو في تلك اللحظة ناظراً بضراعة ومن ورائه يلوح رعاع باريس الغاضبون وجدران لجنة السلامة العامة العارية والمدعي العام [فوكييه تانقي] ـ (أو فوكيه تانفيل) يطالب برأس آرمان باسم شعب فرنسا والمقصلة المخيفة بسكينها الملطخة بالدماء تنتظر ضحية اخرى.. آرمان!..

خيم صمت مطبق على الغرفة لحظة، فيما كانت قاعة الرقص تسطع بالاضواء وتصدر عنها انغام رقصة (الغافوت) العذبة وحفيف أثواب السيدات الحريرية الفخمة، والاحاديث والضحك الصادر عن جمهور كبير مبتهج، كل هذا جاء أشبه بخلفية موسيقية غريبة موحشة للدراما التي كانت تمثل في الحجرة الصغيرة.

لم يتفوه السير آندرو بكلمة أخرى في تلك اللحظة تصاعدت تلك

الحاسة السادسة لدى مرغريت بلاكني. لم تكن ترى لان عينيها مغمضتان، ولم تستطع أن تسمع بسبب الضجيج الصادر عن قاعة الرقص صوت انسحاق قصاصة الورق. لكنها عرفت كأنها ترى وتسمع - أن السير آندرو قد قرب القصاصة الآن من لهب احدى الشموع.

وفي اللحظة التي أوشكت النار ان تلتهم القصاصة فتحت عينيها ومدت يدها و. . . اختطفت باصبعين من اصابعها الجميلة الوريقة المحترقة من يد الشاب. ثم أطفأت اللهب وقربت القصاصة من أنفها بمنتهى اللامبالاة. قالت بمرح:

- يالنباهتك ياسير آندرو. لاشك أن جدتك هي التي علمتك أن رائحة الورق المحترق اعظم علاج للغثيان.

تنهدت بارتياح وهي تمسك بالوريقة بأصابعها المزينة بالجواهر تلك التعويذة التي قد تنقذ حياة أخيها آرمان. حدق السير آندرو فيها ذاهلاً برهة قبل أن يدرك ما حدث. لقد فاجأته تماماً حتى أنه ظل لحظات غير قادر على إدراك حقيقة أن قصاصة الورق التي في يدها الجميلة قد تقرر مصير رفيقه. انفجرت مرغريت بضحكة مرحة طويلة وقالت بعبث:

- لماذا تنظر الي بهذا الشكل؟ أؤكد لك اني احسن حالا بكثير. لقد نجح علاجك كل النجاح.

وأضافت بنفس برودة الاعصاب:

- هذه الحجرة باردة بشكل منعش حقاً. . وأنغام الغافوت في قاعة الرقص ساحرة مريحة.

كانت تثرثر بهذه الطريقة المرحة اللامبالية، بينما راح السير آندرو يشحذ ذهنه لاختيار اسرع طريقة يستطيع بها استعادة الوريقة من يد

المرأة الجميلة. وقفزت الى ذهنه بشكل لاارادي افكار عنيفة مشوشة: تذكر فجأة جنسيتها. . وأسوأ من هذا تلك الحكاية الرهيبة عن الماركيز دو سان سير، التي لم يصدقها احد في انكلترا اكراماً للسير بيري ولها. قالت مع ضحكة مرحة:

- حسناً؟ مازلت تحلم وتحدق بي؟ أنت في منتهى الشهامة ياسير آندرو. الآن انتبهت. لقد ذعرت اكثر مما فرحت لرؤيتي اعتقد، على اية حال، بأن السبب ليس القلق على صحتي ولا علاجاً تعلمته من جدتك ذلك الذي جعلك تحرق قصاصة الورق هذه. . اقسم انها آخر رسالة قاسية تتلقاها من حبيبتك كنت تحاول احراقها.

وأضافت تعابثه رافعة الوريقة بيدها.

- والان اعترف. هل فيها كلمة وداع أم رجاء اخير للمصالحة؟

قال السير آندرو الذي اخذ يتمالك نفسه تدريجياً:

- أيا كانت ياليدي بلاكني فهذه الوريقة تخصني أنا و. . . لم يعبأ بمسألة أن يكون تصرفه غير لائق مع سيدة، بل اندفع صوب القصاصة بأقصى سرعة، لكن مرغريت كانت اسرع الى التصرف وذلك لان عامل الاثارة الكبيرة التي تمر بها جعلها اسرع وأشد ثقة بالنفس. كانت طويلة وقوية فخطت خطوة سريعة الى الوراء فقلبت الطاولة الشيراتون الرقيقة واسقطت الشمعدان على الارض. وأطلقت صرخة استغاثة:

- الشموع، سير آندرو. . . أسرع!

لم تحدث أضرار تذكر فقد افلتت شمعتان عند سقوط الشمعدان وانطفأتا في الحال. أما الشموع الاخرى فسال منها بعض الشمع الذائب على البساط الثمين. وشبت النار في الغطاء الورقي لاحدى الشموع فأسرع السير آندرو يطفئها ويعيد الطاولة والشمعدان الى سابق

وضعهما. لكن هذه العملية أخذت منه بضع ثوان كانت كل ما تحتاجه مرغريت لتلقي نظرة خاطفة على الوريقة وتعرف محتوياتها: عشر كلمات اوءاكثر قليلاً مكتوبة بنفس خط لليد المخربش الذي رأته من قبل ومذيلة بزهرة نجمية الشكل صغيرة رسمت بالحبر الاحمر.

وحين نظر السير آندرو اليها ثانية قرأ على وجهها الذعر من الحادثة المشؤومة فالراحة لزوال الخطر. كانت الوريقة قد سقطت ارضا. فاسرع الشاب يلتقطها بلهفة وانبسطت أساريره حين اطبق عليها بأصابعه بقوة.

قالت، وهي تهز رأسها وتتنهد بغنج.

ـ عيب عليك ياسير آندرو... تحطم قلب دوقة رقيقة، بينما تغزو قلب سوزان الصغيرة العذبة. حسن، حسن! أنا اعتقد بأن (كوبير) كان يساندك وكان مستعداً لان يحرق وزارة الخارجية كلها لمجرد أن يجبرني على القاء قصاصة الورق قبل أن تلوثها نظرتي الجريئة. لحظة اخرى الدوقة الخاطئة.

قال السير آندرو بهدوء لايقل عن هدوئها:

ـ اغفر لي، ياليدي بلاكني، هل لي ان اعود الى مسألة تهمني كنت قد قطعتها علي؟

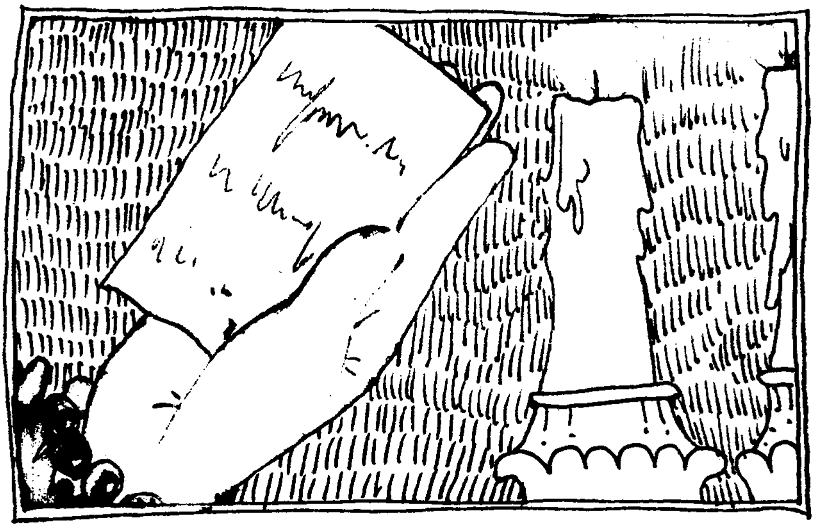
ـ من كل بد ياسير آندرو! كيف أجرؤ على إعاقة آلة الحب ثانية؟ قد يوقع علي عقاباً شديداً لتطفلي. احرق دليل الحب هذا، من كل بد!

كان السير آندرو قد برم القصاصة بشكل خيط وقربها من احدى الشموع التي لم تنطفيء. فلم يلاحظ الابتسامة الغريبة على وجه

رفيقته الحسناء، فقد استغرقه العمل الذي يقوم به حتى اذا أتمه علت وجهه علائم الارتياح وراقب الوريقة المخيفة تتلوى في اللهب وسرعان ما وقعت النتف المحترقة ارضا رمادا فداس على الرماد بكعب حذائه.

قالت مرغريت بلاكني بما عرف عنها من عدم مبالاة حلوة وبابتسامة ساحرة:

ـ والآن، سير آندرو. هل ستغامر بإثارة غيرة سيدتك الجميلة بأن تدعوني الى الرقصة التالية؟



الفصل الثالث عشر

(إما.. وإما؟)

كانت الكلمات القليلة التي قرأتها مرغريت بلاكني على الوريقة نصف المحترقة كلمات مصيرية: «سأغادر غدا . . .» . . هذه الكلمات قرأتها بوضوح، ثم جاءت كلمات غير واضحة بسبب دخان الشمعة، ولكن في أسفل الوريقة جملة كانت هناك جملة هي من الوضوح كأنها كتبت بأحرف من نار: «إن أردت التحدث معي تجدني في قاعة العشاء في تمام الساعة الواحدة». وكانت القصاصة تحمل ختماً رسم على عجل ـ زهرة صغيرة نجمية الشكل اصبحت مألوفة لديها تمام الواحدة! لقد قاربت الحادية عشرة الآن، الدقائق الاخيرة من الرقص. . . ومازال السير آندرو فوكس والليدي بلاكني الجميلة يقودان ثنائيات الراقصين.

بلغت الساعة الحادية عشرة! وهذي عقارب الساعة الجدارية الانيقة من نوع (لويس الخامس عشر) تبدو كأنها تركض بسرعة جنونية كلها ساعتان ويتحدد مصيرها ومصير آرمان. عليها خلال هاتين الساعتين أن تقرر: إما أن تحتفظ بالمعلومات التي حصلت عليها بالمكر لنفسها وتترك أخاها لما ينتظره من مصير واما أن تغدر بملء ذاتها برجل شجاع نذر حياته للاخرين، نبيل كريم وفوق كل هذا غافل عما يحاك ضده ولكن، هناك آرمان!

آرمان ايضا نبيل وشجاع. آرمان ايضا غافل عما يحاك ضده في الخفاء وآرمان يحبها . . وها هي تستطيع إنقاذه من الموت ولكنها تردد. آه! ما افظع ذلك. وجه أخيها الطيب الرقيق، الطافح بالحب لها، يبدو كأنه ينظر اليها معاتباً . . يبدو كأنه يقول لها: «كان بامكانك انقاذي يامرغو، فضلت علي حياة شخص غريب، رجل لاتعرفينه، لم تريه قط . . تفضلين نجاته بينما ترسلينني الى المقصلة!»

راحت هذه الافكار المتضاربة تعصف برأس مرغريت، بينما هي تنساب على أنغام الموسيقى الراقصة وعلى شفتيها، ابتسامة. ولاحظت ـ بما تملكه من رهافة حس ـ بأنها نجحت تماماً في تسكين مخاوف السير آندرو. فقد كان ضبط النفس عندها بدرجة الكمال المطلق، بالغة من اجادة التمثيل في تلك اللحظة وخلال الرقصة كلها مالم تبلغه أبدا على خشبة مسرح (الكوميدي فرانسيز). لكن حياة أخ حبيب لم تكن، بأية حال، مرهونة بمواهبها التاريخية.

كانت أذكى من أن تبالغ بالتمثيل، فلم تكثر من تلميحاتها الى «الرسالة الغرامية» المزعومة، التي عذبت السير آندرو فوكس عذابا

أليمـا طيلة خمس دقـائق. فلاحظت كيف ذابت مخـاوفـه تحت حرارة ابتسامتها المشرقة واستشفت أنها قد نجحت، مع الدقائق الاخيرة من الرقصة، في أزالة كل ما ساوره من شكوك في تلك اللحظة. فلم يدرك أية لهفة محمومة كان تعصف بها وأيّ جهد بذلته للقيام بتلك النتفة من الحديث المبتذل.

حين انتهت الـرقصـة طلبت من السيـر آندرو أن يصحبها الى الغرفة المجاورة، قائلة:

ـ وعـدت صاحب السمـو الملكي بالـذهاب معه الى العشاء. لكن قل لي قبل أن نفترق: هل سامحتني؟

ـ أسامحك؟

ـ أجل! اعترف بأني خوفتك قبل قليل... انما تذكر أنا لست انكليزية ولااعتبر تبادل (الرسائل الغرامية) جريمة... وأقسم لك بأني لن اخبر صغيرتي سوزان.

والان قل لي: هل سأستقبلك في حفلتي بالهواء الطلق يوم الاربعاء؟

أجاب مراوغا:

ـ غير متأكد ياليدي بلاكني. قد أضطر الى مغادرة لندن غدا.

فقالت بجدية:

ـ لو كنت بمكانك لما فعلت.

واذ شاهدت النظرة القلقة ترتسم على وجهه من جديد أضافت قائلة بمرح:

ـ لااحـد يرمي كرة احسن منـك ياسيـر آنـدرو. سنفتقدك كثيرا في لعبة (مرج البولنغ).

قادهـا عبـر الغرفة الى غرفة اخرى وراءها حيث كان صاحب السمو

في انتظار الليدي بلاكني الحسناء. فقال الامير مقدما ذراعه لمرغريت:

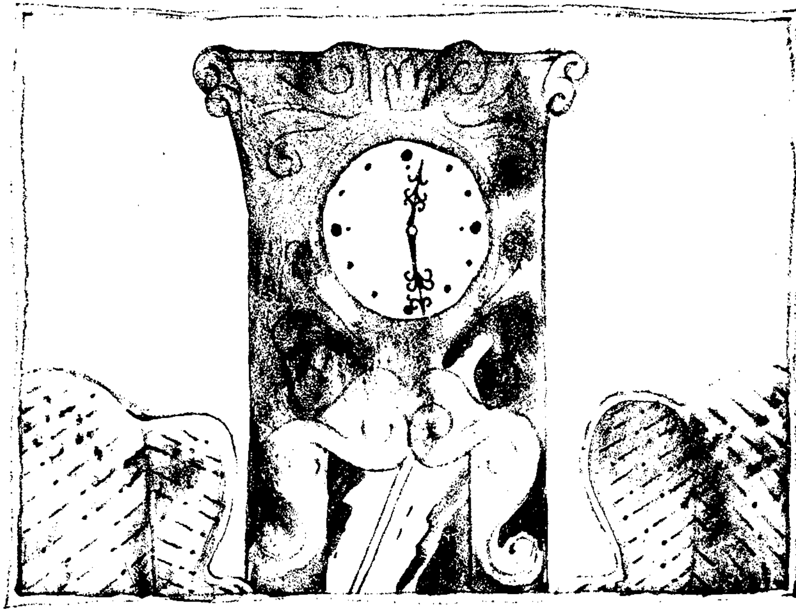
ـ العشـاء ينتظـرنـا ياسيدتي، وأنا كلي أمل، بعدما عبست بوجهي الهة الحظ، أن تبتسم لي الهة الجمال.

سألته مرغريت وهي تتأبط ذراعه:

ـ هل حالفك سوء الحظ في القمار ياصاحب السمو؟

ـ اي نعم! منتهى سوء الحظ. لم يكتف بلاكني بأن يكون اغنى واحد بين رعـايـا والـدي، بل اضـاف الى ذلـك اعجب انـواع الحـظ. بالمناسبة، اين ذلك الذكي الذي لامثيل له؟

أقسم، ياسيدتي، أن الحياة من دون ابتسامتك ولذعاته البارعة صحراء جرداء.



الفصل الرابع عشر
(في تمام الساعة الواحدة)

كانت جلسة العشاء طافحة بالبهجة. أجمع فيها الحاضرون على أن الليدي بلاكني ماكانت يوما بمثل هذا السحر ولا «الابله اللعين» السير بيري بمثل هذا الظرف.

فضحك صاحب السمو حتى سالت دموعه على خديه لردود بلاكني السريعة الطريفة على حماقتها: فيما راح الحاضرون يغنون ابياته المختلّة الوزن على ألحان «طوبى! ايها البريطانيون المرحون!» بمرافقة دق صاحب بالاقداح على المائدة. وفوق هذا كان طباخ اللورد غرينفيل بارعا كل البراعة - بعض الشائعات تقول انه سليل عائلة فرنسية من النبلاء اضاع ثروته فجاء يبحث عن ثروة اخرى في «مطبخ» وزارة الخارجية.

كانت مرغـريت بلاكني في افضـل حالات مزاجهـا، فلم تكن لاي واحد في قاعة الطعام المكتظة فكرة عما يدور في قلبها من صراع رهيب.

إن عقارب الساعة تتقدم بلا رحمة وها هو الوقت قد تجاوز منتصف الليـل بكثيـر، حتى صار ولي العهـد يفكـر بمغـادرة مائدة العشاء. في نصف الســاعـة التـالي ستضـع المقـادير مصائر رجلين شجاعين وجها لوجه: اخيها الذي تحبه حبا جما وهو، ذلك الرجل.. ذلك البطل المجهول.

لم تحاول مرغريت رؤية شوفلان خلال هذه الساعة الاخيرة. كانت تدري أن عينيه الحادتين الثعلبيتين ستخيفانها في الحال وتجعل قرارها يميل الى جانب آرمان. كان قلبها المعذب مايزال يختلج بأمل مجهول مبهم بأن «شيئا ما» سيحصل شيئا كبيرا هائلا تاريخيا يرفع عن كاهليها الفتيين الضعيفين عبء المسؤوليـة الـرهيبـة هذه، مسؤولية اختيار احد خيارين قاسيين.

لكن دقـات (تكتكـات) السـاعـة مضت في ايقاعها الرتيب السمج الذي يبدو لاخلاص منه بقدر ما هو قاس على اعصابنا المرهقة.

استؤنف الـرقص بعـد العشاء. كان ولي العهد قد غادر يصحبه كبار السن من المدعوين. أما الشباب فلم يظهر عليهم التعب وبدأوا رقصة «غاڤوت» جديدة تملأ ربع الساعة التالي.

شعرت مرغريت بأنها غير قادرة على المضي في الرقص، فقد وصل ضبط النفس عندها الى حده. ساعدها احد الوزراء في الوصول ثانية الى الحجرة الداخلية الصغيرة، التي ظلت مهجورة حتى تلك الساعة كانت تدري أن شوفلان مختبىء في مكان ما بانتظارها يتحين الفرصة

للتشاور معها. التقت عيونهما بنظرة خاطفة بعد المعزوفة التي سبقت العشاء وعرفت ان الدبلوماسي الداهية ذا العينين الحاذقتين قد حدس بأن مهمتها نجحت.

تلك هي مشيئة القدر. فها هي مرغريت، التي ينسحق قلبها تحت وطأة صراع رهيب، لايمكن أن يتحمله قلب امرأة ابدا، قد رضخت لمشيئة القدر. لكن آرمان يجب إنقاذه بأي ثمن، لانه، وهو قبل كل شيء أخوها، كان لها بمثابة الام والاب والصديق منذ فقدت والديها وهي بعد طفلة رضيعة. إن فكرة موت آرمان ميتة الخونة تحت سكين المقصلة رهيبة حتى لمجرد التفكير بها، بل مستحيلة في الحقيقة. ذلك لايمكن أن يحصل أبدا، أبدا... أما بالنسبة للرجل الغريب... البطل... حسنا!

إذن فليحكم القدر. ستعمل مرغريت على إنقاذ حياة شقيقها من براثن العدو الذي لايرحم، ثم ليحاول «الزهرة القرمزية» الداهية انقاذ نفسه بعدئذ.

كانت مرغريت تأمل ـ بصورة مبهمة ـ أن ينجح ذلك المغامر الجريء، الذي استطاع طوال شهور عديدة أن يخدع جيشا من الجواسيس، في الافلات من شوقلان والبقاء في مأمن الى النهاية.

راحت تفكر بكل هذا وهي تصغي الى حديث الوزير البارع. الذي وجد في الليدي بلاكني بلاشك مستمعا نموذجيا. وفجأة رأت وجه شوقلان الثعلبي المتربص يتلصص عليها من وراء ستارة رواق فقالت للوزير:

ـ لورد فانكورت، هل لك أن تسدي لي خدمة؟

فأجاب بأدب شديد:

ـ أنا كليا في خدمة سيدتي.

ـ هل يمكن أن ترى ان كان زوجي في قاعة القمار؟ فاذا وجدته فهل يمكن أن تخبره بأني تعبانة للغاية وأود العودة الى البيت حالاً. إن أوامر المرأة الجميلة مطاعة من قبل كل الناس، حتى الوزراء. وعلى هذا امتثل اللورد فانكورت للامر في الحال. قال:

ـ لااريد ان اترك سيادتك وحدك.

ـ لاتخف. أنا في أمان تام هنا ـ ولا احد يضايقني كما اعتقد... لكني في غاية التعب حقا. تدري أن السير بيري سيعود بي الى ريتشموند. مسافة طويلة ولن نصل قبل طلوع الفجر ـ اذا لم نسرع.

فلم يجد اللورد فانكورت بدا من الذهاب.

ما أن توارى الرجل حتى تسلل شوفلان الى الغرفة وما هي الا لحظة حتى وقف بجانبها في هدوء وبلادة. سألها.

ـ عندك اخبار لي؟

كأن عباءة من ثلج احاطت بكتفي مرغريت في تلك اللحظة، فقد شعرت ببرد شديد وخدر، رغم ان خديها كانا يشتعلان. آه ياآرمان! ليتك تعلم اية تضحية مخيفة بالكبرياء والكرامة تقدمها اختك المحبة من أجلك! أجابت بميكانيكية وهي تحدق في الفراغ:

ـ لاشيء مهم. لكني قد اكون امسكت بخيط تمكنت ـ لايهم كيف ـ من اقتناص السير أندرو فوكس وهويحرق قصاصة ورق من احدى هذه الشموع في نفس هذه الغرفة. ونجحت في الامساك بالوريقة بأصابعي لمدة دقيقتين وتأملت ما فيها لمدة عشر ثوان.

فقال شوفلان بهدوء:

ـ مدة كافية لقراءة مافيها.

فأومأت برأسها موافقة ثم تابعت كلامها بنفس نبرة الصوت الميكانيكية:

- في ذيل الوريقة كان ختم الزهرة الصغيرة النجمية الشكل المألوفة وفوقه قرأت سطرين. البقية احترقت.

- ماذا في هذين السطرين؟

تيبست حنجرتها فجأة، فقد شعرت بأنها لاتستطيع التلفظ بالكلمات التي قد ترسل رجلا شجاعا الى حتفه.

اضاف شوڤلان بسخرية مريرة.

- لحسن الحظ لم تحترق الورقة كلها، لان ذلك ليس من مصلحة آرمان سان جيست. ماذا يقول السطران يامواطنة؟

قالت بهدوء:

- احدهما يقول «سأغادر غدا». الاخر: «اذا اردت التحدث معي تجدني في قاعة العشاء في تمام الواحدة».

تطلع شوڤلان الى الساعة الجدارية المعلقة فوق الموقد وقال بأدب:

- عندي متسع من الوقت إذن.

سألته:

- ماذا ستفعل؟

كانت شاحبة شحوب التمثال ويداها باردتان كالثلج ونبضها. يدق بقوة في قلبها وصدغيها. آه، هذه قسوة، قسوة! ماذا فعلت لتستحق كل هذا؟ هذا هو حكم القدر: هل فعلت خيرا أم شرا؟ لاحد غير الملاك الذي يدون في اللوح المحفوظ يمكنه ان يجيب على هذا السؤال.

اعادت السؤال بميكانيكية:

ـ ماذا ستفعل؟

ـ آه، لاشيء في الوقت الحاضر. المسألة معلقة.

ـ بماذا؟

ـ بمن سأراه في قاعة العشاء في تمام الواحدة.

ـ سترى الزهرة القرمزية طبعا. لكنك لاتعرفه.

ـ لا. لكني سأعرفه في الحال.

ـ لابد ان سير آندرو قد حذره.

ـ لااظن. بعدما تركته وقف ينظر اليك دقيقة او دقيقتين نظرة فهمت منها ان أمراً ما حصل بينكما شيء طبيعي، أليس كذلك؟ خمنت بذكاء طبيعة هذا «الشيء ما». وعلى هذا جررت الشاب النبيل الى حديث طويل ودي ـ ناقشنا نجاح أوبرا غلوك الفريد في لندن ـ الى أن جاءت سيدة فتأبطت ذراعه الى قاعة العشاء.

ـ وبعدئذ؟

ـ لم ادعه يغيب عن نظري طوال فترة العشاء. وعندما صعدنا جميعا امسكت به الليدي بورتارلي وبدأت تتحدث عن موضوع الانسة سوزان دوتورناي الحسناء. علمت انه لن يتحرك من مكانه الا بعدما تفرغ الليدي بورتارلي ما في جعبتها من كلام حول الموضوع، وهذا يحتاج الى ربع ساعة آخر على الاقل والساعة الان الواحدة الا خمس دقائق.

تهيأ للذهاب الى الممر حيث أزاح الستارة ووقف وأشار الى مرغريت لان ترى في نهاية الرواق السير آندروفوكس مستغرقاً في حديث طويل مع الليدي بورتارلي. قال مبتسماً بانتصار:

ـ أظن اني ساجد الشخص الذي ابحث عنه في قاعة العشاء ياسيدتي

الجميلة.
- قد يكون هناك اكثر من واحد.
- ليكن من يكون هناك فان رجالي يراقبون كل واحد. ان واحدا من هؤلاء او اثنين، وربما ثلاثة - سيغادر الى فرنسا يوم غد. واحد منهم هو «الزهرة القرمزية».
- نعم؟ وبعد؟
- أنا أيضاً، ياسيدتي الجميلة، سأغادر الى فرنسا ابدا. الاوراق التي عثرنا عليها عند السير آندرو فوكس تتحدث عن مكان قريب من كاليه، عن نزل اعرفه يدعى «القط الرمادي» وفي مكان منعزل من الشاطيء يوجد «كوخ الاب بلا نشار» لابد ان اعثر عليه. كل هذه الاماكن اشار اليها الانكليزي المتطفل على انها مخابيء للخائن دوتورناي وغيره واماكن لقاء مع مبعوثيه.
يبدو انه قرر ان لايرسل مبعوثيه، بل «سيذهب بنفسه يوم غد».
والان... ان واحدا ممن سأراهم بعد قليل في قاعة العشاء سيسافر الى كاليه. سأتبع ذلك الشخص حتى يقودني الى حيث ينتظره اولئك الارستقراطيون الهاربون. لان ذلك الشخص، ياسيدتي الجميلة هو الرجل الذي ابحث عنه منذ سنة تقريبا، الرجل الذي اتعبني بحيويته وحيرني بذكائه وادهشني بجرأته... نعم! أنا! الذي غلبه مرة أو مرتين ذلك الرجل الغامض الماكر «الزهرة القرمزية»!
سألته بضراعة:
- وآرمان؟
- هل أخلفت وعداً من قبل؟ اعدك بأني يوم نرحل أنا والزهرة القرمزية الى فرنسا، سأبعث لك بالرسالة الحمقاء فى بريد خاص. اكثر من

هذا اني اعطيــك وعــدا من فرنسـا بأن سان جيست سيكـون هنـا في انكلتـرا سالمـا مطمئنـا بين ذراعي اختـه الفـاتنـة يوم اقبض على ذلك الانكليزي المزعج .

وانحنى لهـا انحنـاءة بارعـة ونظـر الى السـاعـة الجدارية مرة اخرى ثم تهادى خارجا من الغرفة .

شعرت مرغريت بأنها تستصيع سماع وقع خطواته القططية وهو ينسل عبـر غرف الاستقبـال الـواسعـة ، رغم الضجيـج وصخب المـوسيقـا والرقص والضحك . وأنها تسمعه يهبط السلم الرئيس ويصل الى قاعة الطعـام ويفتـح الباب . لقد اصدر القدر حكمه فجعلها تتكلم وترتكب خطيئة وعملا شائنا من اجل اخيها الحبيب . استلقت في كرسيها ذاهلة ساكنة وصورة عدوها العنيد ماثلة ابدا امام عينيها الدامعتين .

كانت قاعـة الطعـام مقفرة ، حين وصل شوﭬلان وكان منظرها ، على مافيه من بذخ ، كئيبا مهجورا يذكر الانسان بمنظر ثوب سهرة في صباح اليوم التالي .

أقـداح فارغـة ونصف مملوءة متنـاثـرة على المـائدة وفوط مطوية لم تستعمـل بعـد وكـراسي متقـابلة في مجمـوعات من اثنين او ثلاثة تبدو كأنهـا مقـاعـد أشبـاح كانت منغمسـة في الحديث وفي الاركان مقاعد متـلاصقة تدل على خلوات غزل تتخللها كؤوس شمبانيا مثلجة وفطائر وهنـا وهنـاك مجمـوعـات من ثلاثـة مقـاعد او اربعة تدل على جلسات خاصـة مرحـة وحـديث عن آخـر الفضـائح . بينما كانت هناك صفوف منتظمـة تدل على أن الجـالسين من النـوع الـرسمي العبوس المتزمت كالعجـائـز . وكانت هناك بضعة مقاعد متفرقة ملازمة للمائدة تدل على ان اصحـابهـا من النـوع الاكـول الشـره البـاحث عن «أطـايب»

المأكـولات. وكـراسي اخرى مقلوبة تحكي الكثير عن خمور صاحب الدعوة اللورد غرينڤيل.

كانت، في الحقيقـة، نسخـة شبحيـة من الحفلة البـاذخة التي في الطـابـق الـعـلوي. شبـح يلوح في كل بيـت يقيم حفـلات وولائم فخمـة... كصـورة مرسـومة بالطباشير الابيض على ورقة سمراء... كئيبـة باهتـة، ولاسيمـا ان الثيـاب الحريرية الزاهية والبدلات الرسمية الانيقة لم تعد تملأ خلفية الصورة البائسة والشموع توشك أن تذوب وتنطفىء.

ابتسم شوڤـلان برقـة وفرك يديه النحيلتين الطويلتين وجال بنظره في أرجاء القاعة الخالية التي غادرها حتى آخر الطفيليين ليلتحق بأصحابه في الطـابق الارضي. كان الصمت يخيم على القـاعـة القليلة الانـارة بينمـا كانت انغام الموسيقا الراقصة وهمهمات الاحاديث والضحكات البعيـدة وصـوت عجلات العربات المغادرة بين حين وآخر تتناهى الى قصر «الحسناء الناعمة» هذا مثل غمغمة أشباح آتية من بعيد.

كان كل شيء يبدو هادئاً أنيقاً ساكناً حتى ليعجز أشد الناس ملاحظة ـ حتى لو كان نبياً حقيقياً ـ عن اكتشاف أن قاعة الطعام المهجورة هذه ليست سوى فخ منصـوب لاصطيـاد أشـد النـاس دهـاء وجرأة في تلك الايام الحافلة بالاحداث.

وقف شوڤلان مفكراً، يتأمل ماهو مقدم عليه، ترى ما شكل الرجل، الـذي اقسم هو وقـادة الثـورة كلهم على قتله؟ كل مايحيـط به غريب وغامض... شخصيته التي اخفاها بمنتهى الدهاء، السلطان الذي له على تسعـة عشـر نبيـلاً انكليـزيـاً يطيعـون أوامره طاعة عمياء، الحب الشـديـد والخضـوع اللذان زرعهمـا في نفـوس هذه العصبة الصغيرة

المدربة، وفوق كل هذا جرأته المدهشة ووقاحته التي لاحدود لها التي جعلته يتحدى أشد اعدائه سطوة . . . وداخل أسوار باريس نفسها.

فلا عجب ان يثير اسم «الزهرة القرمزية» لدى الفرنسيين شعورا غيبيا بالخوف. حتى شوڤلان نفسه تملكه، وهويتفحص القاعة الخالية التي سيظهر فيها البطل الغريب، شعور غريب بالخوف وبرعشة تسري في عموده الفقري.

لكنه رسم خططه جيدا. كان واثقاً بأن الزهرة القرمزية لم يتلق اي تحذير وبأن مرغريت بلاكني لم تخدعه ان كانت هي خدعته . . ياللنظرة القاسية التي ارتسمت في عيني شوڤلان. ان كانت هي لعبت عليه فياللعقاب الشديد الذي ينتظر آرمان سان جيست.

لكن، لا، لا! هي لم تلعب عليه بالطبع!

كانت قاعة الطعام خالية لحسن الحظ: هذا يسهل عمل شوڤلان حين يدخل ذلك الرجل الغامض بمفرده وهو غافل عمن ينتظره. فلا احد هنا سوى شوڤلان.

صبراً! انتبه مندوب الحكومة الفرنسية الماكر، وهويتطلع الى ارجاء القاعة الخالية بابتسامة رضا، الى صوت تنفس منتظم هادىء لاحد ضيوف اللورد غرينڤيل يبدو انه اكل وشرب مافيه الكفاية وجاء ليستمتع بنوم هادىء بعيداً عن صخب الموسيقا والرقص في الطابق العلوي.

تطلع شوڤلان حوله مرة اخرى واذا به يرى على اريكه في زاوية معتمة من القاعة رجلاً طويلاً فاخر الثياب متمدداً مفتوح الفم مغمض العينين يغط في نوم هادىء عميق. كان ذلك الرجل زوج اذكى امرأة في اوربا!

نظر شوڤلان الى النائم . . . كان مستلقياً بارتياح غائباً عن الوعي غير

مهتم بالدنيا كلها بعدما تناول عشاء فاخراً. . . واذا ببسمة اشفاق تكسر من حدة الوجه الفرنسي العبوس وترسم على العينين الشهلاوين نظرة سخرية.

واضح ان هذا النائم، الغارق في نوم عميق لاتعكره الاحلام، لن يعرقل خطة شوفلان لاقتناص الزهرة القرمزية الماكر. ففرك يديه ثانية بارتياح وحذا حذو السير بيري بلاكني فتمدد على أريكة اخرى واغمض عينيه وفتح فمه وصار يرسل شخيراً هادئاً و. . . راح ينتظر!



الفصل الخامس عشر

(شك)

راقبت مرغريت بلاكني طيف شوڤلان ببدلته السوداء السابغة يشق طريقه عبر قاعة الرقص. واضطرت مرغمة الى الانتظار بينما كانت اعصابها طعماً للتوتر والقلق.

جلست بفتور في الغرفة الخلفية الصغيرة الساكنة تتطلع عبر ستارة الرواق الى الراقصين... تنظر اليهم لكنها لاترى شيئاً وتصغي الى الموسيقى لكنها مشغولة عنها بهاجس من الخوف والانتظار القلق المضني.

واستحضرت في ذهنها صورة لما يمكن ان يجري في الاسفل بتلك اللحظة. قاعة الطعام شبه الخالية واللحظات المصيرية وشوڤلان يراقب!... ثم إذ تشير عقارب الساعة الى الواحدة تماماً.. يدخل

رجـل . . . الـزهـرة القـرمـزيـة . الـزعيم الغـامض ، الـذي هو في نظر مرغريت ، يكاد ان يكون وهماً . . هوية خفيّة غاية في الغرابة ، غاية في الغموض .

تمنت لو انهـا في قاعـة الطعـام في هذه اللحظـة لتراه داخلاً وكانت تعْلم ان فراستها النسوية ستقرأ بوجه الشخص الغريب ـ كائناً من يكون ـ علائم الشخصيـة القـويـة التي يتمتـع بهـا القـائـد من الـرجال . . . البطـل . . النسـر المخلق في الاعـالي الـذي يشـاء القدر ان يوقعه في شباك ابن عرس .

وجعلتهـا عواطفهـا الانثـويـة تفكـر بالـرجل بأسى صادق كم قاسية سخرية القدر التي تجعل الاسد الهصور [الذي لايهاب] تقرضه أسنان فأر! آه! وحيـاة آرمـان . . . أليست في خطـر! . . . فجأة سمعت صوتاً من خلفها تماماً :

ـ قسماً! لابد أن سيادتك تصورتني نسيتُ . لقد وجدت صعوبة شديدة في ايصـال رسـالتـك لاني لم استطع العثور على بلاكني في أي مكان في البداية . . .

كانت مرغـريت قد نسيت كل شيء عن زوجهـا وعن رسـالتها اليه . وبدا اسمه ، على لسان اللورد فانكورت ، غريباً لم تألفه اذنها من قبل . ذلـك أن الـدقـائق الخمسـة الاخيرة عادت بها الى حياتها القديمة في شارع ريشيليو، وأخوها آرمان الى جانبها يحبها ويحرسها ويحميها من المكائد الكثيرة التي كانت باريس تزخر بها في تلك الايام . تابع اللورد فانكورت كلامه :

ـ وجدته أخيراً وأبلغته رسالتك . قال إنه سيصدر أوامره حالاً بتهيئة العربة .

قالت، وهي ماتزال سارحة البال:
- آه! وجدت زوجي وأبلغته رسالتي؟
- أجل. وجدته في قاعة الطعام يغط بالنوم. تعبت حتى أيقظته من نومه.
قالت بطريقة آلية وهي تحاول أن تستجمع أفكارها:
- شكراً جزيلاً.
سألها اللورد فانكورت:
- هلا شرفتني سيادتك بالرقص معي الى أن يجهزوا العربة؟
- لا. أشكرك ياسيدي وأرجو أن تعفيني.. أنا تعبانة جداً والحر في قاعة الرقص بات لايطاق.
- المشتل الزجاجي بارد منعش اسمحي لي باصطحابك الى هناك وجلب بعض المنعشات لك. تبدين مريضة ياليدي بلاكني.
أجابت باعياء، تاركة اللورد فانكورت يأخذ بيدها:
- أنا تعبانة جداً فقط.

أخذها الى المشتل الزجاجي حيث الانوار خافتة والنباتات تنشر جواً من البرودة اللطيفة في الجو. وجاء لها بكرسي لتستريح. كانت فترة الانتظار الطويلة هذه لاتطاق. لماذا لم يأت شوفلان ليخبرها بنتائج مراقبته؟

كان اللورد فانكورت في غاية الطيبة والادب، خفيض الصوت حتى أنها كانت تسمعه بالكاد. وفجأة سألته بلا سابق إنذار:
- لورد فانكورت، هل تبينت جيداً من كان مع السير بيري في قاعة الطعام؟
- فقط مندوب الحكومة الفرنسية، المسيو شوفلان. هو الآخر كان غارقاً

بالنوم في زاوية اخرى من القاعة. لماذا تسألين سيادتك؟
ـ لاأدري . . . أنا . . . كم كانت الساعة حين كنت هناك؟
ـ لابد أنها الواحدة وخمس أو عشر دقائق.
وأضاف:
ـ ترى بماذا تفكرين ياسيدتي؟
فمن الواضح أن السيدة الجميلة كانت سارحة بأفكارها بعيداً ولم تكن تصغي لحديثه الشيق.

أما الحقيقة فهي لم تكن سارحة بافكارها بعيداً: بل الى مسافة الطابق الارضي من القصر نفسه، الى قاعة الطعام حيث كان شوفلان يتربص. هل فشل في مسعاه؟ إنتعشت هذه الفكرة في قلبها كالامل ـ أمل بأن يكون الزهرة القرمزية قد تلقى تحذيراً من السير آندرو وبأن فخ شوفلان قد فشل في اصطياد الطير! لكن سرعان ماتبدد هذا الامل ليحل محله الخوف. هل فشل؟ ولكن . . . آرمان!

كف اللورد فانكورت عن الحديث حين وجد أن لااحد يصغي له، وصار يتحين الفرصة للانسلال خارجاً: ذلك لان الجلوس مع سيدة لاتهتم بمحاولات جليسها لتسليتها أمر لايسر النفس، مهما تكن تلك السيدة جميلة. قال أخيراً بأدب:
ـ سأرى ان كانت عربة سيادتك جاهزة.
ـ آه، أشكرك . . . أشكرك . . . إذا تفضلت . . . أخشى أن اكون ضايقتك بصحبتي . . . لكنني تعبانة حقاً . . . وربما يستحسن أن أترك وحدي.

كانت تتمنى أن تتخلص منه، لأنها تأمل أن يكون شوفلان يحوم حول المكان مثل ثعلب؛ بل هو ثعلب! منتظراً الفرصة ليراها على

انفراد.

وذهب اللورد فانكــورت، لكن شوڤـلان لـم يأت. آه! ماذا حدث؟ شعــرت بأن مصيـر آرمـان يتأرجـح . . . فخـافت. . خوفـاً قاتـلاً هذه المـرة. . . أن يكـون شوڤـلان فشل وأن الزهرة القرمزية الغامض أثبت مرة اخرى انه داهية، عندئذ عرفت أن لاامل لها في الرأفة، في الرحمة من جانب الرجل.

لقـد وضعهـا صراحـة أمام خيار «إما . . . وإما» ولن يقبل بغير هذا. كان حقوداً جداً ومستعداً للاعتقاد بانها خدعته عن قصد وبما انه اخفق ثانيـة في اصطيـاد النسر فان عقله الحاقد الانتقامي سيجعله يتوجه الى الضحية المسكينة ـ آرمان!

لكنها فعلت كل ما يمكن عمله من أجل آرمان. فهي لاتطيق فكرة أن يذهب كل ذلك سدى. لم تستطع صبراً. أرادت أن تذهب وتسمع أسـوأ الاخبـار في الحال. بل انها استغربت عدم مجيء شوڤلان حتى هذه اللحظة ليصب على رأسها نار غضبه العارم وسخريته.

جاء اللورد غرينڤيـل بنفسـه بسـرعـة ليخبـرها بأن عربتها جاهزة وأن السير بيري في انتظارها.

لوحت بمنديلها قائلة «وداع» لصاحب الدعوة الكبير واستوقفها اثناء مرورها عدد كبير من اصدقائها للتحدث معها اولتبادل عبارات التوديع اللطيفة.

ورافق الـوزيـر الليـدي بلاكني الجميلة حتى اعلى السلم الرئيس، وكـان عنـد اسفـل السلم حشـد من الشخصيات ينتظرون ليقولوا عبارة «مـع السـلامـة» لملكة الجمال والاناقة، بينما وقفت عربة السير بيري الفخمة بجيادها الاصيلة الاربعة، تحت السقيفة الامامية.

وبينما هي تودع صاحب الدعوة في اعلى السلم وتتهيأ للنزول رأت شوڤلان فجأة، يصعد السلم ببطء ويفرك يديه النحيلتين بهدوء.

كانت نظـرة غريبـة ترتسم على وجهـه المتغير التعابير، ابتسامة فيها بعض الاستغراب والكثير من الحيرة. ولما التقت عيناه الحادتان بعيني مرغريت لاحت فيهما نظرة ساخرة بشكل غريب.

قالت، لما صعد الى اعلى السلم وانحنى لها انحناءة بارعة.

- مسيو شوڤلان. عربتي في الخارج هل لي ان استند على ذراعك؟

فقـدم لهـا ذراعـه بأدب شديـد كعادته ونزل معها. كان الجمهور غفيراً وكـان بعض الضيـوف يغـادرون، فيما وقف آخرون جانباً ينظرون الى العشرات الذين ازدحموا على السلم الكبير صعوداً او نزولا.

قالت أخيراً بنفاد صبر:

- شوڤلان، لابد أن اعرف ماحدثْ.

فقال شوڤلان بدهشة مصطنعة:

- ماذا حدث ياسيدتي الجميلة؟ أين؟ متى؟

- أنت تعـذبني ياشـوڤلان. لقد عاونتك الليلة... لي الحق ان اعرف بالتأكيد. ماذا حصل في قاعة الطعام في الواحدة، قبل قليل؟

كانت تتحدث بصوت خفيض واثقة من أن أحداً غير الرجل الواقف بجوارها لن يسمعها في وسط الضوضاء الشاملة.

- هدوء وسلام شامل ياسيدتي الجميلة. في تلك الساعة كنت أنا نائماً على أريكة في ركن من القاعة والسير بيري بلاكني في ركن آخر.

- لم يدخل أحد قط القاعة؟

- لا احد.

ـ أجل! فشلنا . . ربما

فقالت بضراعة :

ـ لكن . آرمان؟

ـ آه! مصيــر آرمــان سان جيست معلق بخيــط . . . ادعي من الله ان لاينقطع الخيط .

ـ شوڤلان . أنا خدمتك باخلاص وجدية . . تذكر . .

فقال بهدوء :

ـ أتــذكـر وعدي . يوم أتلاقى مع الزهرة القرمزية على أرض فرنسا وجهاً لوجه يكون سان جيست بين يدي اخته الفاتنة .

فقالت وهي ترتعش :

ـ يعني أن تتلوث يداي بدم رجل شجاع .

ـ دمـه أودم شقيقـك . أنـا واثق بأنـك تتمنين في هذه اللحظـة ، مثلما أتمنى أنا ، أن يسافر الزهرة القرمزية الغامض الى كاليه ، اليوم .

ـ أنا لاأعيش سوى أمل واحد ، ايها المواطن .

ـ وهو؟

ـ أن يأخذك سيدك الشيطان الى مكان آخر قبل شروق الشمس .

ـ أنت تخجلينني بهذا الاطراء يامواطنة .

كانت قد استـوقفتـه عند منتصف السلم محاولة الوصول الى مايدور من افكار وراء ذلك القناع الثعلبي النحيف . لكن شوڤلان ظل كما هو دمثاً ساخراً غامضاً فلم يقل كلمة واحدة للمرأة القلقة المسكينة تريحها من عذاب الخوف او تنزع من قلبها الامل .

ما أن نزلت حتى أحـاط بهـا المعجبـون . فالليـدي بلاكني لاتغادر مكـانـاً الى عربتهـا دون أن يلتف حولهـا حشـد من الفراشات البشرية

المنجـذبـة الى ضوء جمـالهـا السـاحر. لكنها قبل أن تتحول للذهاب التفتت الى شوقـلان ومـدت يدهـا الصغيـرة بحـركة استعطاف طفولية فاتنة، وقالت بضراعة:

ـ اعطني بعض الامل ياشوفلان الصغير.

فانحنى باحترام شديد على اليد الصغير الجميلة، التي زادها بياضاً الكم الحـريـري الاسـود المحيـط بهـا، وقبل اطراف الاصابع الوردية وكرر القول مع ابتسامة غامضة:

ـ ادعي من الله ان لاينقطع الخيط.

وانسحب جانبـاً ليفسح المجال للفراشات ان تتجمع حول الشمعة وسـرعـان ما حجب حشـد المعجبين الذي التف حول ليدي بلاكني، الوجه الثعلبي النحيف عنها.



الفصل السادس عشر

(ريشموند)

بعد بضع دقائق كانت تجلس على مقعد الحوذي بجانب السير بيري ملتفة بالفراء الدافيء الثمين، فيما انطلقت الجياد الاربعة الاصيلة تقرع بحوافرها أرض الشارع الهاديء.

كانت ليلة دافئة رغم النسيم البارد قليلاً الذي راح يلطف من حرارة خدي مرغريت المشتعلين. وسرعان ما أخذت بيوت لندن تتراجع الى الوراء وانطلقت الجياد عبر جسر هامرسميث العتيق في طريقها الى ريشموند يقودها السير بيري.

وكان النهر يتلوى بانحناءاته الرقيقة كأنه حية فضية تلمع تحت ضوء القمر، والاشجار الطويلة ترسم احياناً ظلالاً داكنة كئيبة على الطريق. وراحت الجياد تنهب الارض نهباً والسير بيري يمسك بعنانها بيد ماهرة.

كانت هذه السفرات الليلية بعد حفلات الرقص والعشاء في لندن مصدر متعة دائمية لمرغريت. وكانت تعجبها غرابة اطوار زوجها، تلك المغرابة التي تجعله يفضل أن يحملها بالعربة الى البيت كل ليلة، الى بيتهما الجميل المطل على النهر، بدلاً من العيش في بيت مزدحم بالاثاث كان يحب قيادة جياده المفعمة بالنشاط على الطرق المقفرة التي ينيرها ضوء القمر. واحبت هي الجلوس بجانبه على مقعد الحوذي تاركة هواء ليل الصيف الانكليزي العليل يداعب وجهها، بعد الجو الحار الخانق الذي ساد الحفلة. لم تكن السفرة طويلة، احياناً تستغرق أقل من ساعة حين تكون الجياد بكامل حيويتها ويطلق السير بيري لها العنان.

أما هذه الليلة فيبدو أن الشيطان قد حلّ في أصابعه فاذا بالعربة تكاد تطير على الدرب المحاذي للنهر. لم يكلمها بل راح يحدق بالطريق ممسكاً أعنّة الخيل بيده البيضاء الرقيقة في يسر. أمعنت مرغريت النظر مرة او مرتين فلم تستطع أن ترى سوى صورته الجانبية الجميلة واحدى عينيه الخاملتين بأجفانهما الثقيلة شبه المطبقة.

بدا الوجه في ضوء القمر جدياً بصورة غريبة. فعادت الى ذاكرة مرغريت المعذبة ايام الغزل والخطوبة السعيدة قبل أن يتحول الى احمق كسول، الى رجل لاه عديم الجدوى ينفق أيامه بين موائد القمار والمآدب.

لكنها لم تر في ضوء القمر الآن تلك النظرة الخاملة في العينين الزرقاوين بل صورة جانبية قوية جميلة. الحقيقة ان الطبيعة لم تبخل على السير بيري. أما عيوبه فالمسؤول عنها أمه المجنونة المسكينة

والاب المحطم القلب المذهول اللذان لم يهتما بتربية الصبي الحائر بينهما واوشكا ان يحطما حياته بذلك الاهمال.

شعرت مرغريت بعطف شديد على زوجها. فالازمة الاخلاقية التي مرت بها قبل قليل جعلتها تفهم وتتعاطف مع عيوب الاخرين وجوانب الضعف فيهم.

صارت تنظر الى تحكّم القدر بمصائر الناس بخوف شديد. لو أن احداً قال لها قبل اسبوع انها ستنحدر الى حد التجسس على اصدقائها، انها ستغدر برجل شجاع غير مرتاب وتسلمه الى عدو لايرحم، لكانت ضحكت منه باحتقار.

ومع ذلك فعلت كل هذا: والآن ربما تسببت بموت هذا الرجل الشجاع، مثلما تسببت بموت الماركيز دوسان سير قبل سنتين بثرثرتها. لكنها في مسألة الماركيز كانت من الوجهة الادبية بريئة ـ فلم تنوي بالرجل شراً. كل ما في الامر انه حكم القدر.
لكنها هذه المرة قامت بفعل خسيس وفعلته بقصد وراءه دافع قد لايستسيغه دعاة الاخلاق الفاضلة.

شعرت بحضور زوجها القوي الى جانبها، لكنها شعرت ايضا بأنه سينفر منها ويحتقرها بشدة لو علم بما فعلته الليلة. فهكذا البشر يحكم احدهم على الاخر بصورة سطحية وعرضية ويحتقر الواحد الاخر بلا سبب ولا رحمة. فهي تحتقر زوجها لبلاهته وتفاهة اهتماماته ومشاغله وتشعر بأنه سيحتقرها اضعاف ذلك لانها كانت اضعف من ان تقوم بعمل صائب من أجل الصواب والحق، من ان تضحي بشقيقها كما يملي الضمير.

كانت مرغريت غارقة في افكارها فلم تشعر بسرعة انقضاء الوقت ولذا شعرت بخيبة أمل شديدة حين انتبهت فجأة الى أن الجياد دخلت البوابة الواسعة المؤدية الى بيتها الانكليزي الجميل.

كان بيت السير بيري بلاكني، المطل على النهر، مكان تاريخي: فهو واسع سعة القصور يتربع وسط حدائق غناء وله واجهة أخاذة تطل على النهر. وتشكل جدرانه المبنية بالآجر الاحمر في العصر التيودوري مع الخضرة الوارفة المحيطة بالقصر منظراً غاية في الجمال، تضيف الى جماله المزولة [الساعة الشمسية] التي تتوسط المرج الامامي. وهناك اشجار عملاقة منفردة ترسم ظلالاً تضفي على الجو برودة منعشة. إن أوراق الاشجار قد بدأت بالذبول والتحول الى لون الذهب في هذا الوقت المبكر من الخريف مضفية على الحديقة القديمة جواً شاعرياً هادئاً.

أوقف السير بيري العربة ببراعة فائقة امام رواق المدخل ذي الطراز الاليزابيثي الجميل. واذا بجيش من الخدم تنشق عنهم الارض ويقفون على أهبة الاستعداد رغم الساعة المتأخرة من الليل.

قفز السير بيري من العربة بسرعة ليساعد مرغريت على النزول. ولبثت في الخارج بضع ثوان، بينما كان هو يعطي بضعة أوامر لاحد الخدم. طافت حول جانب البيت ومضت الى المرج تنظر الى الافق الفضي المترامي بعينين حالمتين. كانت الطبيعة من حولها هادئة هدوء شاملاً بعكس ماكان يعتمل في نفسها من مشاعر مضطربة: فلم تكن تسمع خرير الماء او الحفيف الشبحي لسقوط ورقة ذابلة من شجرة.

كل ما حولها هاديء. سمعت صهيل الجياد وهي تقاد الى الاصطبل البعيد ووقع اقدام الخدم الخفيف وهم يعودون الى الداخل

لينــامــوا. البيت ساكن تمــامــاً هو الآخــر والشمــوع مازالت موقــدة في جناحين منفصلين يقعان فوق قاعات الاستقبال الرائعة . . . جناحاهما هي وهــو، يفصــل بينهمــا امتــداد البيت كله، مثلمــا تباعدت حياتهما الخــاصــة. وجــدت نفسها تتنهد رغماً عنها ـ لم تكن في تلك اللحظة تقدر على معرفة السبب.

كانت تعــاني من غم شديــد. وتشعــر بحزن عميق ورثاء لنفسها فلم تشعــر قط من قبــل بمثــل هذه الــوحــدة المثيرة للشفقة. وكانت بحاجة مريــرة الى العــزاء والعطف. تنهــدت ثانية وهي تتحول عن النهر عائدة الى البيت، متسائلة ان كانت بعد الذي جرى هذه الليلة ستستطيع ان تجد طعماً للراحة والنوم.

سمعت فجأة، قبــل وصــولهــا الى الشــرفــة الارضيــة الامامية، وقع خطــوات قويــة على الارض المغطــاة بالحصى النــاعم ثم برز طيف زوجهــا من الظلمــة. فهــو ايضــا دار حول البيت وقطــع المــرج صوب النهــر. كان مايــزال مرتــديــاً معطف السفــر الثقيــل الحــافــل بالطيــات والياقات الذي صممه بنفسه لكنه لم يكن مزرّراً هذه المرة، بل مدفوعاً الى الــوراء فيمــا وضــع السيــر بيري يديه في جيبي سرواله الحريري. وبــدت بدلتــه الفخمــة، التي ذهب بهــا الى حفلة اللورد غرينفيــل وما تحمله من زينات ومطرزات لاتقدر بثمن، غريبة كأنها طيف شبح وسط الظلمة التي تلف المكان.

من الــواضــح انــه لم ينتبــه لوجود زوجته. لانه توقف برهة ثم التفت صوب البيت ومضى الى المدخل.

ـ سير بيري!

كان قد وضــع قدمــه على أولى درجــات المــدخــل، لكنــه فوجيء

بندائها فتوقف وراح يحدق في الظلام حيث جاء صوتها.

تقدمت بسرعة الى حيث ضوء القمر وما أن رآها حتى خاطبها بنفس اللهجة الزاخرة بالدماثة والادب التي يخاطبها بها دائماً:

ـ في خدمتك، سيدتي!

لكن قدمه ظلت في مكانها على الدرجة الاولى، وكان في موقفه كله ما أوحى لها، ولو بطريقة مبهمة، انه يفضل الذهاب ولا يرغب بحديث في منتصف الليل.

قالت:

ـ الهواء عليل وضوء القمر هاديء وشاعري والحديقة جذابة. الا تبقى هنا قليلاً؟ الوقت ليس متأخراً جداً أم أنك صرت تنفر من صحبتي الى حدّ أنك تستعجل التخلص مني؟

فرد عليها بلهجة طيّعه:

ـ لا ياسيدتي، انما لأنّ قدمي تؤلمني، وأؤكد لك انك ستجدين هواء منتصف الليل اعذب في غير صحبتي. لاشك ان سيادتك سترتاحين عندما أزيح العقبة من طريقك. التفت ثانية ليذهب فقالت بعجلة وهي تقترب منه:

ـ احتج على فكرتك السيئة عني، سير بيري. الغربة وأسفاه! التي قامت بيننا ليست من يدي.. تذكر احتج على كلامها ببرود:

ـ صبراً، صبراً! يجب أن تعذريني ياسيدتي، فان ذاكرتي أضعف ذاكرة دائماً.

نظر الى عينيها مباشرة بعدم الاكتراث الكسول الذي صار جزء من طبيعته فردت على نظرته بنظرة قوية استمرت لحظة ثم رقّت نظرتها اذ اقتربت منه حتى درجات المدخل.

ـ اضعف ذاكـرة، سيـر بيـري؟ سبحان الله! كيف تغيرت ياترى! أكان ذلك قبل ثلاث او اربع سنوات يوم قضيت معي ساعة من الزمن وأنت في طريقك الى الشرق؟ لم تنسني حين عدت بعد سنتين . . .

بدت مثـل ربّـة من ربّـات الجمـال وهي واقفـة في ضوء القمـر وقد انـزلقت العبـاءة عن كتفيهـا الجميلين فبـدت تطريزات الثوب الذهبية تلمع وتتماوج من حولها. وعيناها الزرقاوان الطفوليتان تنظران اليه نظرة مستديمة.

وقف لحظة، متصلباً ساكناً فيما عدا يده التي كانت تشد بقوة على درابزين [محجر] المدخل الصخري. قال ببرود:

ـ كنت ترغبين في وجـودي معـك ياسيـدتي. وأظن أن المسألة لم تكن من أجل استعادة الذكرى اللطيفة فيما بعد.

كانت لهجتـه باردة متصلبـة حقاً: وموقفه منها فيه خشونة وعناد. ان كرامـة المـرأة تستـدعي أن ترد مرغـريت على البرود بمثله وأن تتجاهله وتمضي بلا كلام، بل مجـرد تحيـة صغيـرة بالـرأس لكن غريـزة المرأة دعتهـا الى البقـاء ـ ذلك الاحساس القوي الذي يجعل المرأة الجميلة تعي جيـداً أن لديهـا من السلطان ما يجعل الرجل المتمرد يركع أمامها معلناً الطاعة. مدت له يدها:

ـ لا ياسيـر بيـري. . لم لا؟ الحاضر ليس بهذه الدرجة من الروعة ولذا أرغب في الرجوع الى الماضي قليلاً.

فأحنى قامته المديدة وتناول أطراف أصابعها الممدودة وطبع عليها قبلة رسمية وقال:

ـ أنـا، صدقيني ياسيـدتي . . . اعـذريني اذا عجز احساسي البليد عن مصـاحبتـك الى ذلـك الـزمان ومرة اخرى تحول ليذهب. ومرة اخرى

ناداه صوتها الرقيق الطفولي العذب:

ـ سير بيري .

ـ خادمك ياسيدتي .

سألته فجأة بانفعال شديد :

ـ ايمكن ان يموت الحب؟ ظننت أن تعلقك الشديد بي سيبقى طوال العمر ويزيد ألم يبق شيء من ذلك الحب يابيري؟ . . يجعلك تزيل الجفوة المحزنة؟

بدا هيكله الضخم ، وهي تتكلم كأنه ازداد تصلباً فزم شفتيه وزحفت نظرة عنيدة صارمة الى العينين الزرقاوين الخاملتين . سألها ببرود :

ـ بأية وسيلة ، بالله عليك ، ياسيدتي؟

ـ لاأفهمك .

فقال في مرارة مفاجئة طغت على كلماته رغم محاولته الواضحة إخفاءها :

ـ مع ذلك فالمسألة في منتهى البساطة . أنا أسألك بكل تواضع لان ذهني المحدود غير قادر على استيعاب دوافع مزاج سيادتك الجديد . هل هي رغبتك في العودة الى الرياضة الشيطانية التي مارستها بنجاح في العام الماضي؟ أيعجبك أن تريني صريع هواك ثانية راكعاً عند قدميك حتى تستمتعي برفسي جانباً مثل كلب زينة .

لقد نجحت في اثارته . نظرت اليه مباشرة مرة اخرى . ها هو بيري الذي عرفته من قبل . همست :

ـ بيري! أتوسل اليك . الا يمكننا دفن الماضي؟

ـ عفوك ياسيدتي ، لكن الذي فهمت أنك تريدين العودة اليه . قالت

ـ لا! لم اتحدث عن ذلك الماضي يابيري! كنت اتكلم عن ايام حبك لي! وأنـا . . . آه! لاجـدوى ثروتـك ومركزك اجتذباني . تزوجتك على أمل ان يزرع حبك العظيم لي حباً لك في قلبي . . . ولكن واحسرتاه!

تواري القمـر وراء ستـارة من الغيـوم . وبـدأ في الافق الشرقي خيط رمادي يزيح عن كاهل الارض عباءة الليل المعتمة الثقيلة . وصار السير بيـري يرى حدود طيفهـا الجميل الرائع ، رأسها الملكي الصغير بثروته من الخصـلات الـذهبيـة المـائلة الى الحمـرة ومشبك الشعر المرصع بالاحجار الكريمة بشكل زهرة حمراء نجمية الشكل كأنه تاج على رأسها .

ـ بعد اربع وعشرين ساعة من زواجنا ، ياسيدتي ، هلك الماركيز دوسان سير وجميع افراد عائلته تحت سكين المقصلة وسمعت الناس يتناقلون شائعة تقول ان زوجة السير بيري بلاكني هي التي ساعدت على اعدامهم .

ـ لا! أنا نفسي اخبرتك بحقيقة تلك الحكاية الشريرة .

ـ ليس قبـل ان يرويهـا لي النـاس الغـربـاء ، بكـل تفـاصيلها الرهيبة .

فقالت بمنتهى الحدة :

ـ وصـدقتهم في كل الاحـوال ، دون سؤال أودليـل ـ صدقت أني ، أنـا التي اقسمت ان تحبهـا اكثـر من حيـاتـك ، التي اعلنت انك تعبدها ، يمكن ان اقـوم بعمـل خسيس كالـذي رواه لك هؤلاء «الغرباء» ظننت اني قصـدت ان اخـدعـك اني كان يجب ان اتكلم قبل زواجي منك . مع ذلـك ، لوكنت اصغيت لي لكنت اخبـرتك . . . لكنت أنت عرفت اني حتى صبـاح اليـوم الـذي ذهب فيـه سان سير الى المقصلة ، كنت اقـدح ذهني واستخـدم كل مالـدي من نفـوذ لانقـاذه هووعائلته . لكن

كبـريـائي خنق صوتي حين شعـرت بأن حبـك لي سينتهي الى الموت كأنه يعدم تحت سكين المقصلة نفسها . ومع ذلك كنت سأخبرك كيف استغفلوني ! أجـل ! انـا التي كان الناس نفسهم يصفونني بكوني اذكى إمـرأة في فرنسـا ! خدعـوني وجروني الى القيام بهذه الفعلة . . . رجال عرفوا كيف يضربون على وترحبي لاخي الوحيد ورغبتي في الانتقام . ألم يكن ذلك طبيعياً؟

خنقت العبـرة صوتهـا فسكتت لحظـة او اثنتين محـاولـة ان تستعيد بعض التمـاسـك وتطلعت اليـه بضـراعـة كما لوكان قاضياً يحاكمها . تركها تتكلم بطريقتها الزاخرة بالانفعال دون أن يعلق بشيء اويسمعها كلمـة عطف . وحين توقفت عن الكـلام محـاولـة أن تبتلع الـدمـوع السـاخنـة التي فاضت بهـا عينـاهـا لم يكترث لها بل ظل على جموده وهـدوئـه . بدت قامتـه المـديـدة في ضوء الفجر الشاحب اطول وأشد جمـوداً . وبدا الوجه الطيب الخامل متحفزاً مشدوداً على نحوغريب . واستطـاعـت مرغـريت ، رغم انفعـالها ، ان تلاحظ ان العينين لـم تعودا تنظران بتكاسل والفم لايبتسم ببلاهة بل كانت ثمة نظرة غضب شديد غريبـة تلمـع من تحت الاجفـان الثقيلة والفم مطبق بقـوة والشفتـان مزمومتان كأن الارادة القوية هي التي تمنع هذا الحب العارم من الانفجار .

كانت مرغـريت ، قبـل كل شيء ، امـرأة بكل ما في المرأة من نقاط ضعف ساحرة ، بكل ما تملك المرأة من خطايا حبيبة للنفس لقد عرفت في لحظـة انهـا اخطأت الفهم خلال الشهور القليلة الماضية : أن هذا الـرجـل الـواقف أمـامهـا ، بارداً كالتمثـال ازاء صوتها الموسيقي الذي يسيطر على أذنه ، يحبها كما كان يحبها قبل سنة ، أن حبه لها قد يكون

في حالة سبات الا انه قوي وعميق وطاغ

الكبـريـاء هو الـذي باعـد بينهما، لكنها عقدت العزم ـ كأية امرأة ـ على استعـادة تلك السيطـرة التي كانت ملكها من قبل. وفجأة شعرت بأن السعادة الوحيدة التي تقدمها الحياة لها ثانية هي الشعور بقبلة ذلك الرجل على شفتيها مرة اخرى. جاء صوتها خفيضاً عذباً غاية في الرقة.

ـإسمـع الحكـايـة، ياسيـر بيري. آرمان كان كل شيء بالنسبة لي! كنا يتيمين فربى كل واحـد منـا الآخـر. فكان هو أبي الصغير وكنت أنا أمه الصغيـرة. وأحب احـدنـا الآخر بشدة. ثم جاء يوم ـ هل تسمعني سير بيـري؟ أمـر المـاركيـز دوسان سير بجلد أخي ـ أمر خدمه بأن يجلدوه ـ أخي الذي أحببته اكثر من العالم كله! وما جريمته؟ أنه، وهو رجل من عامة الناس، تجرأ وأحب أبنة الارستقراطي.

لهـذا السبب طرحـوه أرضـاً وجلدوه... ضربـوه مثـل الكلب حتى أشـرف على الهـلاك! آه، كم تعـذبت!... تلك الاهـانة ظلت تأكل بنفسي! حين سنحت الفرصة لان آخذ بثأري لم أفوتها. لكني ماكنت افكر بأكثر من إيذاء ذلك الماركيز المتعجرف وتحقيره. تآمر مع النمسا ضد بلده. عرفت هذا بالصدفة. تحدثت عن الموضوع، لكني ماكنت أدري ـ من أين لي أن أحزر؟ استدرجوني الى الكمين. وحين أدركت مافعلت كان الاوان قد فات

قال السير بيري بعد لحظة صمت:

ـ ربمـا يصعب بعض الشيء، ياسيدتي، استرجاع أحداث الماضي. لقـد اعتـرفت لك بأن ذاكـرتي ضعيفـة، غير أني مازلت بالتأكيد اذكر

أني سألتك، يوم مات الماركيز، بعض الايضاح لهذه الشائعات السيئة التي تناقلها الناس آنذاك اذا لم تخني تلك الذاكرة نفسها، حتى في هذه اللحظة، أتصور انك رفضت اي ايضاح في حينه وفرضت على قلبي العاشق ولاء مهيناً لم يكن مستعداً لتقديمه.

ـ أردت اختبار حبك لي ولم يكن امتحاناً لولائك. كنت تردد على مسمعي انك تحيا من أجلي وأجل حبي.

قال:
وحتى أبرهن على صدق ذلك الحب طالبتني بأن اتخلى عن شرفي.
وكان قد اخذ يتخلص تدريجياً من عدم اكتراثه ويفارقه جموده مضى قائلاً:

ـ أن اتقبل دون تذمر او استفسار، مثل عبد ذليل ابكم، كل مايصدر عن سيدتي من افعال، كان قلبي طافحاً بالحب والرغبة لم اطلب ايضاحاً ـ كنت أنتظره. لم يراودني الشك، بل الامل لو كنت قلت كلمة واحدة. كنت سأقبل منك اي ايضاح وأومن به. لكنك لم تشفي غليلي بكلمة، بما يوضح لي حقيقة الامر الرهيب. عدت الى بيت اخيك بكبرياء وتركتني وحيداً. أسابيع... لاأدري، الآن، من أصدق بعدما هوى هيكل أحلامي حطاماً أمامي.

لم تعد تشكو الآن من برودة وعدم اكتراثه. فها هو صوته يرتجف من فرط العاطفة التي يبذل جهداً يفوق طاقة البشر لكبحها.

قالت بأسى:
ـ نعم! جنون الكبرياء! ما أن ذهبت حتى شعرت بتأنيب الضمير. لكن حين عدت وجدتك. آه. قد تغيرت كثيراً. لابساً قناع اللامبالاة الكسول الذي لم تنزعه أبداً سوى... سوى الآن.

اقتربت منه حتى صار شعرها الناعم المفكوك [أو السائب] يداعب خده وألهبت الدموع المتلألئة في عينيها مشاعره فيما سرى صوتها الموسيقي العذب في عروقه سريان النار. لكنه ما كان ليستسلم للفتنة السحرية التي تشع من المرأة التي أحبها بعمق وجرح كبرياؤه على يديها بمنتهى المرارة. فأغمض غينيه حتى لايتأثر برؤية وجهها الحلو وجيدها الابيض كالثلج وقامتها الرائعة التي راح ضوء الشفق الوردي الخفيف يحيط بها مثل هالة ويداعبها

قال ببرود شديد:

- لا، ياسيدتي، ليس قناعاً. لقد اقسمت لك يوماً بأن حياتي ملك يديك. منذ أشهر وأنت تلعبين بها... لقد أوفيت بقسمي.

لكنها كانت تدري أن البرودة هذه قناع. وفجأة اجتاحها قلق الليلة الماضية وأحزانها، من غير مرارة هذه المرة، بل مع شعور بأن هذا الرجل الذي احبها يمكن ان يساعدها على تحمل العبء سألته باندفاع:

- سير بيري... يعلم الله كم عانيت لتجعل المهمة التي اخذتها على عاتقي صعبة التحقيق. تحدثت عن مزاجيتي قبل لحظة. طيب! سنسميها مزاجية كما تشاء. أردت التحدث معك... لاني... لاني... في مأزق... وأحتاج... الى عطفك.

- ماعليك سوى أن تأمري ياسيدتي.

تنهدت وقالت:

- مأأشد برودك! والله! لاأكاد أصدق ان دمعة واحدة مني كانت، الى قبل بضعة أشهر، تكفي لان تجعلك تجن وقد جئتك الآن.. بقلب شبه كسير... و... و... قال بتأثر لايقل عنها:

ـ أتوسل اليك ياسيدتي . . . بأية طريقة استطيع خدمتك؟

ـ بيري؟ آرمان في خطر مميت. رسالة . . . طائشة . . . متهورة، مثل كل تصرفاته، أرسلها للسير آندروفوكس وقعت في يد ثوري متعصب. آرمان متورط بلا شفاعة . . . ربما يلقون عليه القبض غداً . . . وبعد ذلك المقصلة . . . الا اذا . . . الا اذا . . . آه! فظيع.

وقالت، وهي تنوح:

ـ فظيع! . . . وأنت لاتفهم . . . لاتقدر . . . ولا احد عندي اقصده التماساً للعون . . . أوحتى العطف.

لم تستطع ان تمسك دموعها هذه المرة. لقد انهارت تحت وطأة متاعبها ومحاولاتها وقلقها المخيف على مصير آرمان. وترنحت موشكة على السقوط ارضاً فاستندت الى الدرابزين الصخري ودفنت وجهها بين يديها وراحت تبكي بمرارة.

شحب وجه السير بيري لدى سماعه اسم آرمان سان جيست وما يواجهه من خطر ولمعت في عينيه نظرة تصميم واصرار أقوى من أي وقت مضى. لكنه لم يتفوه بكلمة، بل راح يراقبها والبكاء يعصف ببدنها الرقيق. ظل يراقبها حتى لانت ملامح وجهه دون قصد وطاف في عينيه ما يشبه الدموع.

قال بسخرية مريرة:

ـ وإذن، فالكلب الفرنسي المجرم يعضّ اليد التي اطعمته . . .

أضاف برقة شديدة، بينما استمرت مرغريت تبكي بهستريا:

ـ بالله عليك ياسيدتي، هلا جففت دموعك؟ . . . أنا لاأتحمل رؤية امرأة حسناء تبكي، وأنا . . .

وإذا به، وقد غلب عليه الوجد وهويرى حيرتها وحزنها، يمد ذراعيه

فجأة بحـركـة غريـزيـة . وكان سيحتويها بذراعيه ويحميها من كل أذى بحيـاتـه، بدمـاء قلبـه . . . لكن الكبـرياء كانت له الغلبة ثانية في هذا الصراع، فقاوم رغبته بإرادة حديدية وقال ببرود، ولكن بمنتهى الرقة :

ـ ألا تلتفتين إلي ياسيدتي وتقولين لي كيف يمكن أن أنال شرف خدمتك؟

بذلت جهداً عظيماً لضبط النفس والتفتت اليه باكية ومدت اليه يدها مرة اخرى فقبلها بنفس الطريقة الرسمية المؤدبة . لكن اصابع مرغريت ظلت في يده ثانيـة او اثنتين أطـول من الـلازم وذلـك لانها شعرت بيده تشتعل حرارة وترتجف، في حين ظلت شفتاه باردتين كالرخام .

سألته بعذوبة وببساطة :

ـ ألا تستطيـع ان تفعـل شيئـاً لآرمان؟ عندك نفوذ واسع في البلاد . . . اصدقاء كثيرون . . .

ـ لا ياسيـدتي . أليس الافضـل ان تستعيني بنفـوذ صديقك الفرنسي، المسيو شوڤلان؟ نفوذه يصل الى حكومة الجمهورية الفرنسية، إذا لم اخطىء .

ـ لااستطيع ان اطلب منه يابيري . . . آه! ليتني تشجعت واخبرتك . . لكن . . لكن . . . لقد وضع ثمناً لرأس اخي . . وهو . . .

كانت ستتخلص من متـاعب جمـة لو أنها تشجعت في حينه لتخبره بكـل شيء . . . بكـل ما فعلته في تلك الليلة ـ معاناتها واضطرارها الا انهـا لم تجـرؤ على الافصـاح . . . ليس الآن، وقـد بدأت تشعـر بأنـه لايـزال يحبهـا، وهي تأمـل في استعـادة قلبـه لم تجـرؤ على الادلاء باعتـراف آخـر، فقد لايفهم ذلك . . . قد لايتعاطف معها ولا يستجيب لاغرائها . ان حبه الذي لايزال غافياً، قد يغرق في سبات أبدي .

ربما يكون حدس مايدور في بالها. كان يتحرق شوقاً اليها ـ مايشبه الدعاء لاستعادة الثقة التي حجبها كبرياؤها السخيف عنه. وعندما لاذت بالصمت زفر وقال ببرود ملحوظ:

ـ صدقيني ياسيدتي.. مادمت تتضايقين فلن نتحدث في الموضوع. أما بالنسبة لآرمان فأتوسل اليك أن لاتخافي. أعدك بأنه سيعود سالماً. والآن، هل تسمحين لي بالذهاب؟

الساعة متأخرة و...

اقتربت منه كثيراً وقالت في رقة حقيقية:

ـ تقبل امتناني على الاقل.

ولو لم يبذل جهداً جباراً في السيطرة على نفسه لكان أخذها بين ذراعيه ومسح بقبلاته الحارة الدموع من عينيها. لكنه لم ينس انها اجتذبته مرة ثم رمته جانباً مثل قفاز ضيق. فظن أن هذه مزاجاً، نزقاً. وكان كبرياؤه أكبر بكثير من أن يستسلم له ثانية. قال بهدوء:

ـ لاداعي للاستعجال ياسيدتي! لم أفعل شيئاً بعد. الوقت متأخر ولابد أنك منهوكة. وضيفاتك بانتظارك.

تنحى جانباً ليسمح لها بالمرور. فزفرت، خيبة أمل سريعة ها هو كبرياؤه وجمالها يدخلان في صراع مباشر ويظل كبرياؤه هو المنتصر. ربما انخدعت الآن. وما اعتبرته بريق حب في عينيه ليس سوى وميض الكبرياء أو... من يدري.. قد يكون وميض الكراهية لا الحب! وقفت تنظر اليه بضع لحظات هاهو يعود الى بروده ولامبالاته السابقين. لقد انتصر الكبرياء، ولم يعرها اي اهتمام كان الغبش الرمادي قد بدأ ينسحب امام نور الشمس الوردي وبدأت الطيور تغرد. لقد استيقظت الطبيعة باسمة باستجابة سعيدة لدفء هذا الصباح الرائع من ايام

تشـرين الاول. لكن هذين القلبين يقـوم بينهمـا حاجز صعب لايمكن اجتيـازه، جدار من الكبـريـاء بنـاه الطرفان ولايريد اي منهما أن يكون البادىء بتهديمه.

أحنى قامتـه المـديـدة في انحنـاءة رسمية شديدة حين تحركت اخر الامر لترتقي درجات سلّم المدخل، مرسلة زفرة مريرة صغيرة مرة اخرى.

كنست آذيـال ردائهـا الطـويـل آوراق الشجـر الذابلة المتناثرة على الدرجات محدثة هسهسة متناغمة مع حفيف خطواتها وكان ضوء الفجر الـوردي يرسم حول شعـرهـا هالـة ذهبيـة جاعـلاً أحجار الياقوت على رأسهـا وحـول ذراعيها تتألق. توقفت ثانية قبل الدخول، آملة بيأس أن ترى ذراعيـه ممـدوتين اليهـا. وتسمـع صوتـه ينـاديها. لكنه لم يتحرك وكانت قامته العملاقة المتصلبة تجسد الكبرياء المتزمت والعناد الشديد.

سالت الـدموع الحارة من عينيها ثانية فأسرعت تلتفت حتى لاتدعه يراها وانطلقت تركض بأقصى ما تستطيع الى جناحها.

لو كانت التفتت في تلك اللحظة ونظرت ثانية الى الحديقة السابحة بنور الفجر الوردي لرأت ما يجعل أحزانها ومعاناتها خفيفة هينة ـ هناك يقف رجـل قوي يسحقـه حزنه ويأسه. لقد إنهار كبرياؤه أخيراً وتلاشى عنـاده وتحـولت إرادتـه الى هبـاء فهوليس سوى رجل يحب حباً جنونياً طاغيـاً اعمى. فمـا ان تلاشى وقع خطواتها الخفيفة داخل البيت حتى خر على ركبتيـه وراح، من فرط حبـه لهـا، يقبـل درجـات السلم الصخرية حيث داست بقدميها الصغيرتين والدرابزين الصخري حيث وضعت يدها الصغيرة الرقيقة.



الفصل السابع عشر
(الوداع)

حين وصلت مرغريت الى غرفتها وجدت وصيفتها تنتظرها بقلق شديد. قالت المرأة المسكينة التي لاتكاد تقدر على فتح عينيها من شدة النعاس:

ـ سيدتي في غاية التعب.

قالت مرغريت بلطف:

ـ آه، أجل يالويز. يمكن القول انني متعبة للغاية انما انت تعبانة جداً الآن، فاذهبي الى فراشك حالاً سآوى أنا الى فراشي بنفسي.

ـ لكن، سيدتي . . .

ـ لاتجادلي يالويز، بل اذهبي الى سريرك. اعطيني دثاراً (اوجراماً) ودعيني وحدي.

أطـاعت لويـز وهي في غايـة الفـرح . فنـزعت عن سيدتها ثوب السهرة الفخم والبستهـا رداء من قمـاش اسفنجي ناعم ، وسألت بعدما انتهت من ذلك :

ـ هل ترغب سيدتي في شيء آخر؟

ـ كلا . لاشيء . اطفيء الانوار عندما تخرجين .

ـ نعم ، سيدتي طابت ليلتك سيدتي .

ـ طابت ليلتك يالويز.

حين ذهبت الـوصيفـة أزاحت مرغـريت الستـائـر وفتحت النـوافذ . كانت الحـديقـة والنهـر من ورائهـا غارقين بضـوء الفجر الوردي ، فيما حولت الشمس اللون الـوردي في الافق الشـرقي الى ذهبي زاه، كان المـرج خاليـاً الآن . تطلعت مرغـريت الى درجـات المـدخل ، حيث كانت قبل لحظات تحاول عبثاً أن تستعيد حب رجل كان ملكها كلياً .

الغريب في الامر أن كل متاعبها وكل مخاوفها وقلقها على آرمان لم تصرف انتباهها عما تشعر به في هذه اللحظة من غم حاد ومرير. فهذه أطرافها تئن شوقاً ولهفة للرجل الذي رفضها باحتقار، الرجل الذي قاوم عذوبتها وظل بارداً امام رجاءاتها ولم يتأثر بفيض الانفعال الذي جعلها تأمل بأن لاتكون ايام باريس الماضية الجميلة قد ماتت وطواها النسيان .

ما اغرب هذا كله! هي مازالت تحبه . والآن ، وهي تتأمل ما اتسمت به الاشهـر القليلة المـاضيـة من التبـاسات وسوء فهم وشعور بالوحدة ، أدركت انها لم تكف عن حب الرجل ، انها كانت تشعر من اعماق قلبها دائمـاً بان بلاهتـه وضحكتـه الجوفاء وعدم مبالاته وخموله ليست سوى

قنـاع وبأن الـرجل الحقيقي، القوي المحب الولهان مايزال كامناً فيه ـ الرجل الذي أحبت. . . الرجل الذي سحرها عمقه وجذبتها شخصيته لانهـا كانت تشعـر دائمـاً بأن وراء غبائه الظاهري شيء ما أكيد، أخفاه عن الناس. وعنها خاصة.

إن قلب المـرأة مشكلة معقـدة ـ وغـالباً ما تكون صاحبته أقل الناس قدرة على ايجـاد حل لهـذه الاحجيـة، اصحيـح ان مرغـريت بلاكني «اذكى امرأة في أوربا» أحبت رجلًا احمق؟ هل كان ما شعرت به نحوه حين تزوجتـه قبـل سنـة حبـاً؟ (أو: أكـان حبـاً ما شعرت به نحوه حين تزوجتـه قبـل سنـة؟) أهـو حب هذا الذي شعرت به الآن اذ ادركت انه لايـزال يحبهـا، ويـرفض ان يكـون عبـداً لهـا، عاشقـاً ولهـانا مندفعاً كالسابق؟ لا! مرغريت نفسها لم تستطع الجزم بذلك. . . حتى الان، ربمـا اعمى كبـريـاؤهـا بصيـرتهـا فلم تستطع ان تفهم شعورها بصورة افضـل غيـر ان ماتعـرفـه جيـداً ـ هوعزمهـا على استرجاع ذلك القلب العنيد. أن تغزوه مرة اخرى ثم ان لا تفقده بعدئذ أبداً . . . أن تحتفظ به، تحتفـظ بحبـه وتستحقـه وتنعم به. . . لانها تعلم الان علم اليقين انها لن تذوق طعم السعادة بدون حب ذلك الرجل.

هكذا راحت اشد الافكار والمشاعر تضارباً تدور بجنون في رأسها. ونسيت في غمرة انشغالها مرور الوقت. واذ اخذ منها التعب اغمضت عينيها فعلا وغرقت في نوم مضطرب مملوء بالكوابيس، لتفيق فجأة من نومها او تأملاتها على ضوضاء خطوات خارج غرفتها.

فقفزت من فراشها بعصبية وراحت تصغي: كان الهدوء يخيم على البيت كالعـادة فيمـا تراجع وقع الخطوات. كانت اشعة شمس الصباح

تفيض من خلال النوافذ المفتوحة فتغرق الغرفة. نظرت الى الساعة فوجدتها تشير الى السادسة والنصف ـ وقت مبكر جداً لاستيقاظ اي واحد من سكان البيت.

لاشك انها استغرقت في نوم عميق. فايقظتها ضوضاء الخطوات واصوات ناس يتحدثون همساً او بهدوء. من هم ياترى؟

مشت على اطراف اصابعها برقة الى الباب لتصغي: لاصوت... غير الصمت الاعتيادي الساعات الفجر الاولى، حين يكون سلطان النوم باسطاً ظله على البشر جميعاً. الا ان الضوضاء أهاجت اعصابها. وعندما انتبهت فجأة الى شيء ابيض عند قدميها، من تحت الباب ـ رسالة بالتأكيد، لم تجرؤ على لمسها. بدت الرسالة كالشبح: اكيد انها لم تكن هناك حين جاءت هي الى غرفتها. هل لويز ؟ أم ان شبحاً يلعب بأعصابها فيجعلها ترى رسائل خيالية لاوجود لها؟

أخيراً انحنت والتقطت الرسالة ويالدهشتها وحيرتها الشديدتين حين وجدت الرسالة معنونة لها بخط يد زوجها الكبيرة التي تشبه ايدي رجال الاعمال. ماذا يمكن ان يقوله في منتصف الليل مما لايمكن تأجيله حتى الصباح؟

فتحت الغلاف وراحت تقرأ:

«ظرف طاريء للغاية يجبرني على الذهاب الى الشمال حالاً. لذا ارجو عفوك ياسيدتي لاني لااستطيع ان أنال شرف توديعك. قد يستغرق العمل مني اسبوعاً، ولذا ستفوتني متعة حضور حفلة سيادتك يوم الاربعاء. وسأبقى خادم سيدتي الاشد تواضعاً وطاعة.

بيري بلاكني»

كأن عدوى غباء الزوج انتقلت الى مرغريت. فقد اضطرت الى قراءة السطور القليلة مرات ومرات قبل أن تستطيع فهمها في نهاية الامر.

وقفت تقلب في يدها هذه الرسالة المقتضبة الغامضة وكان ذهنها عاجزاً عن التفكير واعصابها متوترة من فرط القلق والتوجس اللذين لم تستطع ان تجد لهما تفسيراً.

صحيح ان للسير بيري أملاكاً واسعة في الشمال، وكثيراً ماكان يذهب الى هناك ويمكث اسبوعاً في كل مرة انما الغريب جداً هذه المرة ان تحصل ظروف مابين الخامسة والسادسة صباحاً تجعله يسافر بمثل هذه السرعة.

حاولت مرغريت عبثاً ان تطرد عنها توتر الاعصاب كانت ترتجف من رأسها الى قدميها. وتملكتها رغبة جنونية بأن ترى زوجها ثانية. في الحال، ان لم يكن قد رحل فعلاً.

فانطلقت تنزل السلم، ناسية انها لاترتدي سوى رداء النوم وشعرها سائب حول كتفيها، واخترقت الصالة الى الباب الامامي.

يكون الباب موصداً بالاقفال والمزاليج في مثل هذه الساعة عادة لان الخدم نائمون لكن اذنها المرهفة التقطت اصوات ناس يتكلمون ووقع حوافر جواد على أرض الفناء الخارجي الصخرية.

رفعت مرغريت الاقفال والمزاليج واحداً واحداً باصابع عصبية راعشة، مؤذية بذلك يديها واظافرها. غير انها لم تعبأ فقد كان بدنها كله يرتجف قلقاً خشية ان تكون قد تأخرت في الوصول، ان يكون قد رحل قبل ان تراه وتودعه متمنية له «سفرة موفقة!».

تريدين خدمة مني في المدينة؟ . . . في طريق عودتي؟

- لا، لا . . . شكراً . . . لاشيء . . . لكنك ستعود سريعاً؟

- سريعا جدا.

- قبل نهاية الاسبوع؟

- لااستطيع القول.

واضح انه كان يستعجل الذهاب، بينما هي تحاول المستحيل لابقائه معها لحظة او لحظتين. قالت:

- بيري. الا تخبرني لم تسافر اليوم؟ لاشك أني، باعتباري زوجتك، لي الحق بأن اعرف. لم يطلبك احد من الشمال ادري. لارسائل من هناك . . . لم يأتك رسول قبل ذهابنا الى الاوبرا الليلة الماضية . . . ولاشيء في انتظارك حين عدنا من الحفلة . . . انت لست ذاهباً الى الشمال . . . اشعر بقناعة . . المسألة فيها بعض الغموض . . . و . . .

قال بشيء من نفاذ الصبر:

- لا، ما من غموض ياسيدتي. المسألة تتعلق بآرمان . . . هكذا! والان، هل تسمحين لي بالذهاب؟

- تخص آرمان؟ . . . لكنك لن تتعرض لخطر؟

- خطر؟ أنا؟ لاياسيدتي . . . قلقك يشرفني. تعرفين ان عندي بعض النفوذ. أنوي الاستفادة منه قبل فوات الاوان.

- هل تسمح لي بان اشكرك على الاقل

فقال ببرود:

- لاياسيدتي، لاداعي لذلك. حياتي في خدمتك . . . وأنت أوفيتني حقي حتى الان.

فقالت باندفاع :

- وسأضع حياتي في خدمتك ياسير بيري ، اذا انت قبلت ، مقابل ماتفعله من أجل آرمان .

ومدت اليه يديها قائلة بضراعة :

- توكل ! لن أؤخرك . . . دعواتي لك . . . مع السلامة . . . ما احلاها في شمس الصباح وشعرها المتوهج يسبح حول كتفيها . انحنى بشدة وقبل يدها . وشعرت هي بالقبلة الملتهبة فهاج قلبها فرحاً وأملاً . قالت برقة :

- ستعود؟

فقال وهو يتأمل بشوق عينيها الزرقاوين .

- عاجلاً !

فاضت عيناها بوعود جميلة رداً على نظرته وهي تسأله :

- و . . . ستتذكر؟

- سأتذكر دائماً ياسيدتي انك شرفتيني بما تأمرين .

كانت الكلمات باردة رسمية ، لكنها لم تشعرها بالبرودة . لقد قرأ قلبها النسوي ذلك خلف قناع البرود واللامبالاة الذي مايزال كبرياؤه يجبره على الاختباء وراءه .

انحنى لها ثانية ثم استأذنها بالرحيل فوقفت جانباً بينما اعتلى هو ظهر جواده «سلطان» ولما انطلق به صوب البوابة الخارجية لوحت له مودعة .

وسرعان ماتوارى خلف منعطف في الطريق ، بينما كان تابعهُ الامين يجد صعوبة في اللحاق به لان «سلطان» انطلق كالسهم تحت لكزات فارسه المنفعل . زفرت مرغريت زفرة أقرب الى الفرح والرضا ودخلت البيت . وعادت الى غرفتها لانها شعرت بالنعاس فجأة مثل طفل نال

منه التعب.

هدأ قلبهـا في الحـال فقـد طيب قلبها أمل لذيذ ومبهم كأنه بلسم، رغم انه مازال يكتوي بنار شوق غير واضح.

لم تعد تشعر بقلق على آرمان. فالرجل الذي رحل قبل قليل، آخذاً على عاتقـه ان يسـاعـد أخـاهـا، ملأ نفسهـا ثقة بقوته وسلطانه. ولقد عجبت من نفسهـا كيف أنهـا كانت تنظـر دائمـاً على انـه احمق أبله! هذا، بالطبـع، قنـاع يلبسـه ليخفي وراءه الطعنـة المريرة التي وجهتها هي الى ايمانه بها وحبه لها. كان هيامه بها سيتغلب على اراته، لكنه لم يكن ليدعها ترى كم هو متيم وكم يتعذب.

الان ستجـري الامـور على مايـرام: فهي ستـدوس على كبـريـائها وتضعه تحت قدميه وتروي له كل شيء وتثق به في كل الامور. وستعود تلك الايـام الجميلة، حين كانـا يتنـزهـان في حدائق «فـونتنبلو» ولايتكلمـان الا قليـلاً لانه كان ميالاً للصمت دائماً ـ لكنها كانت دائماً تجد الراحة والسعادة حين تستند الى قلبه القوي.

وكلمـا مضت تفكـر بأحـداث الليلة السـابقة قل خوفها من شوفلان ومكـائـده لقـد اخفق في معـرفـة هويـة الـزهرة القرمزية. هي واثقة من ذلـك، فقـد أكّد لها اللورد فانكورت وشوفلان بأن قاعة الطعام لم يكن فيها في تمام الواحدة سوى الفرنسي نفسه وبيري ـ أجل! بيري! كانت ستسألـه لو أن الفكـرة خطرت ببالها! على اية حال، كانت مطمئنة الى أن البطل الشجاع المجهول لم يقع في مصيدة شوفلان، وأن ذنب موته بالتالي لن يقع على عاتقها.

لاريب ان آرمان مايزال في خطر، لكن بيري اعطاها وعدا بانقاذه.

ولم يخطر ببالها، اذ رأته يرحل، انه يمكن ان يخفق في اي عمل يقوم به. وعندما يصل آرمان الى انكلترا سالماً لن تسمح له بالعودة الى فرنسا.

غمرتها السعادة الان، فمضت الى الفراش اخيراً بعدما سحبت الستائر على النوافذ تماماً لتحجب عنها ضوء الشمس الباهر، وأراحت رأسها على الوسادة، مثل طفل منهوك، وسرعان ما غرقت في نوم هادىء عميق.

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد «١٩٧٩» لسنة ١٩٩٠

وزارة الثقافة والاعلام
دار ثقافة الاطفال
سلسلة مكتبتنا

دار الحرية للطباعة
بغداد

السعر ١,٢٥٠ دينار